القديس يوحنا ذهبيّ الفم

البتوليّــة



ترجمة و إعداد

الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوى

القديس يوحنا ذهبّي الفم

عن البتوليّة

Περι παρθενιας

ترجمة وإعداد

الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوى

St. Jean Chrysostome

La VIRGINITE

Sources Chrétiennes no. 125.

cerf, 1966.

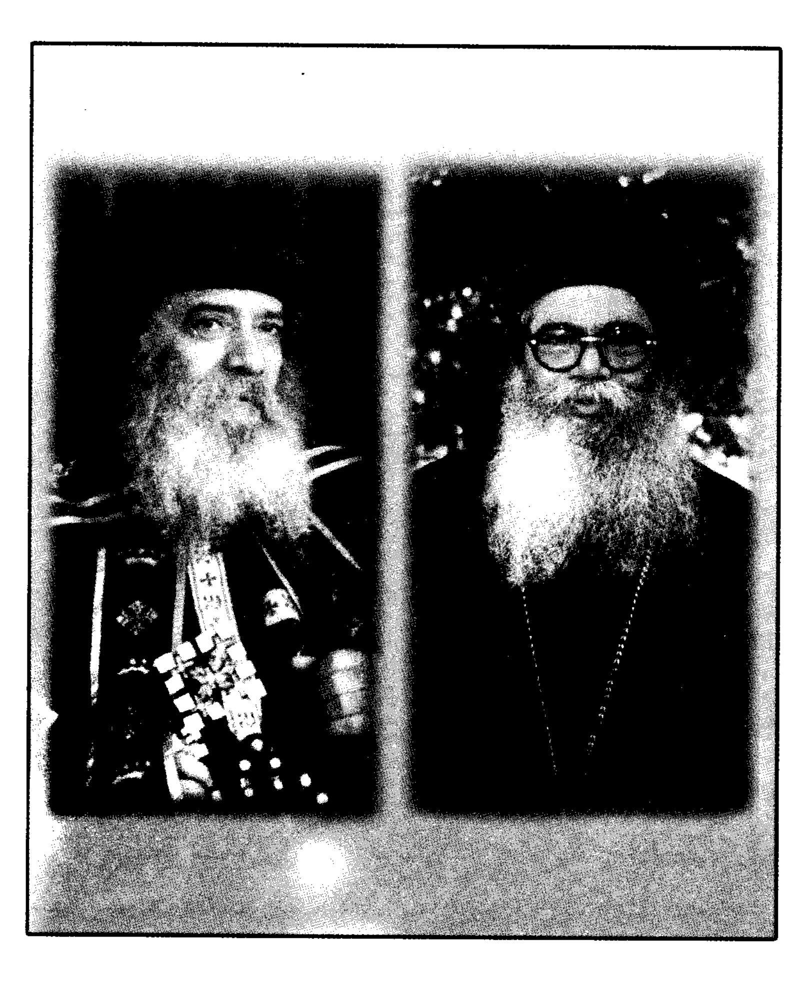
الكتـــاب : «عن البتوليّة»
المؤلـف : القديس يوحنا ذهبّى الفم
ترجمة وإعداد : الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوى
الطبعـة : الأولى – ٢٠٠٨
المطبعـة : مكتب النسر للطباعة – ٢٦٣٢٠٩٧١
رقم الإيداع : ١٩٢٩ / ٢٠٠٨



الشهيد العظيم فيلوباتير مرقوريوس

(أبى سيفين)





قداسة البابا المعظم الأنبا شنوده الثالث

ونيافة الأنبا صرابامون أسقف دير الأنبا بيشوى



مُقَدِّمَة

البتوليّة فى معناها الواسع هى التّقوى المسيحية والسموّ فوق الشهوات الجسدية.

هى ليست امتناعًا سلبيًا عن الزواج، وطلبًا للراحة من مسئوليات الأسرة، بل هى التصاق بالرب من كل القلب، وتسلّيم الإنسان كل نفسه لخدمته. هى تفرغ لله وانسكاب على حبه فى فرح وبذل كاملين، فليس للمتبتل شىء لنفسه بل للرب وحده.

المتبتلون هم مَثلَ رائع للمؤمنين وللذين سوف يؤمنون. لكن الإنسان لا يستطيع أن يخلّص لمجرد تلقبيه بتولاً وهو خالٍ من الأعمال الكاملة اللائقة بالبتوليّة.

إن دراسة هذا الطريق بشىء من الإسهاب لا تنحصر فى راغبى التبتل، بل تمتد فائدتّها إلى عامة الخدام والشعب.

ما أجمل قول القديس أثناسيوس فى رسالته إلى العذارى(١):

«البتوليّة هى كبستان مُغلق لا يدخله إلاّ البستانّى وحده.فهو عريسك، هو الذى سيعطيك الإكليل، هو الذى سيُعدّ لك ثوب وليمة العرس، هو الذى سيكشف لكِ الكنوز، ويُهيّىء لكِ مائدة الآب ويسقيك من نَهر النعمة. انتظريه، وتأمّلى به فى فكرك، تحدّثى معه، افرحى معه، واقتبلى كلّ شىء منه»

---

(١). Athanasiana Syriaca II, Le Muséon, 1928, *Lettre aux vierges*, 202.

أرجو من الرب أن يستخدم هذا العمل البسيط لمجد اسمه ولمنفعة أولاده. بصلوات أبينا الطوباوى البابا شنوده الثالث وشريكه فى الخدمة الرسولية أبينا الأسقف المكرم الأنبا صرابامون.

الراهب القمص مرقوريوس الأنبا بيشوي

٢٢ طوبة ١٧٢٤ش **تذكار نياحة القديس العظيم**

٣١ يناير ٢٠٠٨م **الأنبا أنطونيوس (أب الرهبان).**

المُحتَويَاتْ

صفحة

✠ ✠ ✠ ✠

تمهيد

❖ نظرة عبر التاريخ:

ما من شك أن البتوليّة هي واحدة من أسمى ثمار الحياة المسيحية ونظرة غير متحيزة عبر التاريخ البشري تؤكد هذه الحقيقة. فلو رجعنا إلى الحضارات القديمة، اليونانية والرومانية، لوجدنا أن العزوبية كانت موضع استنكار حتى أن التشريعات القديمة كانت تُلزم الشخص غير المتزوج بدفع ضرائب اضافية. وأفلاطون الفيلسوف اليوناني الشهير يستهجن بقاء شخص دون زواج بعد سن الخامسة والثلاثين[1] باعتبار أنه مُلحد وسيء الحظ، مُلحد لأنه بعزوبيته يضيّع سعادة أرواح الموتى في العائلة، وتعيس لأنه لن يجد بعد مماته من يقدم العبادات والذبائح على روحه.

وغني عن القول أن العبادات والديانات القديمة كانت غارقة في الدنس والفجور بدرجة لا تسمح إطلاقًا لأي مُفكّر أو فيلسوف أو مُصلح اجتماعي أن يتكلّم عن البتوليّة رغم أن منهم من كان ينفرَ من الزواج ويهاجمه ويعدّد متاعبه وهمومه ومشغوليات العائلة والبنين.

❖ بين شعب إسرائيل:

حتى لو عدنا إلى العهد القديم، نلمح من قصة الخلق الأولى شبه إلزام بالزواج، ثم الوعد بالبركات السمائية المتمثّلة في البنين للإنسان السعيد التّقي (**انظُر تث٢٨:٤، مز١٢٨:٣**)، حتى أن الزواج الذي لا يُثمر بالبنين

(١) القوانين ٧٢١.

كان علامة غضب إلهي وعقاب وعار بين الناس (**تك٣٠: ١-٢، ١صم١١: ٥-١٨**). لأجل هذا كان تعدّد الزوجات شائعًا بين اليهود، بل وبين قديسى العهد القديم (**تك٢٩: ٢١، ١٦: ١-٣٠: ٢٣**).

من ذلك نرى أيضًا أنه لا موضع للبتوليّة في العهد القديم، لا في شرائعه ولا في المثاليات التي عاش بِها رجاله وقديسوه[١].

على أن الله لم يعدم وسيلة يمهد بِها للبتوليّة لتأخذ وضعًا ممتازًا قبيل ظهور السيد المسيح مباشرة، إذ بدأت جماعات من اليهود الأتّقياء في بداية الجيل المسيحي الأول في اشتياق وحرارة عبادتَهم لله وترقب ملتهب للمسيَّا تمارس البتوليّة في حياة مشتركة باعتبارها الوضع الأسمي. فيحدّثنا فيلو الإسكندرى[٢]عن جماعة الثيرابيوتا θεραπευταε[٣]التي تعيش في عزلة حول بحيرة مريوط بجوار الإسكندرية. لها قوانينها وعقائدها وفلسفتها التي جعلت للنسك والعفّة قيمة أخلاقية عالية، وتُكرّس وقتها لدراسة الكتب المقدّسة والرياضة الروحية بالتأمل. وفي فلسطين أيضًا بعد أن اُكتشفت حديثًا مخطوطات وادى قمران المشهورة، كانت جماعة الأسينيين تعيش في بتوليّة.

إذن، نستطيع القول أن كلمة «**البتوليّة** η παρθενια» غريبة على

---

(١) يقول ذهبّى الفم في أحد كتاباته: «البتوليّة لم تكن معروفة في الشريعة القديمة- الناموس، و لم ينطق أحـــد القـــدماء بِهذا الاسم على فمه». ويكرّر نفس المعنى في تفسيره لإنجيل متى (عظة١: ٥، ٧٨: ١).

(٢) فيلسوف يهودي عاش في القرن الأول الميلادي وتشبع بالفكر الهليني الإسكندري ووضع كتباً كثيرة أهمها «حيـــاة التأمل De Vita Contemplative»

(٣) كلمة يونانية θεραπευταε تُطلق على من يتعبد للآلهة.

المجتمع البشري. لم تظهر إلاّ في زواياه الخلفية بعيدة عن الأنظار، ولم تنل تكريمًا أو اعتبارًا عند [illegible] ومجتمعات سواء في الفكر اليوناني أو الروماني أو بين اليهود.

❖ في القرون المسيحية الأولى:

دخلت كلمة **البتوليّة** في قاموس الجنس البشري بميلاد المسيح من عذراء[1] η παρθενος، وأكد قيمتها العالية حين فاه بهذا القول: «**...يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات**» (مت١٩:١٢). وجاء بولس الرسول يعيشها ويوصي بِها المؤمنين (**انظُر ١كو٧:٢٥-٤٠، ٩:٥-١٥**). ثم بدأ الروح القدس يعمّق في حياة وفكر الكنيسة الأولى سموّ البتوليّة. وحب الله من كل الفكر والقلب والنفس والقدرة تتميمًا لقول السيد المسيح: «**جئت لأُلقي نارًا** (الروح القدس) **على الأرض، فماذا أُريد لو اضطرمت**» (لو١٢:٤٩)، فظهرت في كتابات القرنين الأول والثاني[2] ما يدل على انتشار البتولية بين جماعات المؤمنين وقيمة العفّة في مضمونَها الجسدي والنفسي والروحي.

ولما دخلت الكنيسة عصور الاستشهاد المريعة كانت طهارة الشهداء والشهيدات هي الخلّفية الروحية التي قامت عليها شهاداتهم بالدم أمام

---

(١) ويقول ذهبّي الفم: «ما أن ظهر الله للعالم مولودًا من عذراء حتى بدأ الإنسان يعرف ممارسة هذه الفـضيلة» De Cruce et latrone II,1.

(٢) ❖ رسالة إكليمندس أسقف روما إلى كورنثوس (ق١) ٣٨:٢.

❖ الديداخي أو تعليم الرسل (سنة ١٠٠- ١٥٠م).

❖ أغناطيوس أسقف أنطاكية (سنة ١٦٠م): الرسالة إلى سميرنا ١٣:١.

❖ الدفاع الأول ليوستين الشهيد (حوالي ١٥٠م) ١٤:٢٩.

❖ إكليمندس الإسكندري (حوالي ١٨٠م) stromates IV, 5&VI,9

العالم الوثني المنحلّ خُلقيًا وأدبيًا. وفي مطلع القرن الرابع صدر مرسوم الإمبراطور قسطنطين الكبير سنة ٣١١م بحرّية العبادة وفتح الكنائس وانتصار صليب الابن على جحافل الوثنية بكل ما تمتلك من جبروت وسلطان وفكر وفلسفة، أمَّا نار الروح القدس فلم تنته، بل استمرت تُغذى باضطرامها حياة المؤمنين وفكر الكنيسة بالسعي الحثيث للمطابقة مع حياة القدّاسة التي عاشها المسيح: **«نظير القدوس الذي دعاكم، كونوا أنتم أيضًا قديسين في كل سيرة»** (**١بط١:١٥**). فصارت البتوليّة هي التعبير البديل للإستشهاد في حياة تمارس الموت الاختياري كل يوم **«من أجلك نُمات اليوم كلّه.قد حُسبنا مثل غنمٍ للذبح»** (**مز٤٤:٢٢**).

واغتنت الكنيسة بجموع البتوليين والعذارى الذين وجدوا في حياة العفّة شهادة ما أعظمها شهادة لسّر الإنجيل وعمل الروح القدس الذي استطاع أن يوصل للجماعات البشرية حياة أخرى ليست من هذا العالم. لأن الإنسان الطبيعي لا يقبل العفّة ولا يعترف بِها، فهي غريبة وفائقة عن طبعه وامكانياته ولكن القوة الروحية الجديدة التي تقبلها المؤمنون كان أول عمل لها تحويل جذري في الطبيعة البشرية.

فالبتول- رجلاً كان أم امرأة- استبدل الحنين للجسد الآخر بالالتصاق بالرب في عشق إلهي (**١كو٦:١٧**). والبتول، اتسع حضنه[١]ليحوى الخليقة

---

(١) حتى بين الكنائس غير التقليدية برز منها أعضاء عاشوا بِهذه الفضيلة وخدموا المسيح، مثل لفنجستون المبشّر الإنجليزي في أفريقيا، الذي فارق أُسرته في انجلترا وقضى حياته بين السود الأفريقيين مُفضلاً أن يموت بينهم على التمتع بالأمان والرفاهية في وطنه، ثم مس ليليان تراشر الفتاة الأمريكية الجميلة ربيبة الغنى والجاه التي تركت غريزتَها ووطنها لتحتضن فقر أطفال مصر وأيتامها، ترعاهم بقلب الله المتسع حتى قيل بعد وفاتها أن عدد من تربّى على يدها يربو على ٢٥ ألف طفل من أيتام أسيوط، كلهم كانوا ينادونَها بلقب «ماما!».

كلها عوض الانحصار في أسرة واحدة وبنين لا يزيد عددهم عن أصابع اليد.

فالبتوليّة من أجل الله شيء ليس من هذا العالم، بل غنى للعالم وقوة مُضافة لحساب البشرية.

❖ الخلفية التاريخية والشخصية:

القديس يوحنا ذهبّي الفم عاش في أواخر القرن الرابع الميلادي في مدينة أنطاكية. من جهة المدينة ذاتها التي كانت ما تزال تحت تأثير الطغيان الوثني في العادات والتقاليد والتعلّيم الذهني والتهذيب الأخلاقي حتى كان يصعب على الشباب، فتية وفتيات، أن يعيشوا بالكمال المسيحي اللائق. وكان الجواب المسيحي أمام الإنحلال الوثني الخلقي هو المزيد من الحب الإلهي، المزيد من التضحية والنسك، المزيد من العفّة والبتوليّة. وترجمة كل هذا هو انتشار الحركات الرهبانية ابتداء من مصر لتعمّ الشرق المسيحي.

مع أن ذهبّي الفم قد تَهذَّب بإيمان مسيحي على أرقى مستوى هيأته له أمه أنثوسا، إلاّ أن تعلّيمه وثقافته هو ما كان مألوفًا لدى الطبقة البورجوازية الوثنية في مدينته. فذِهْنه المتوقِّد وروحه الفضولية المُحبة للاستطلاع ونفسيته الحساسة السرِيعة التأثير، كل هذا لا يهيئ شخصًا كذهبّي الفم للحياة النسكية أو البتوليّة، بل بالعكس يساعد طبيعيًا على تكوين شخصية مُحبة لمباهج العالم المحيطة وللمسّرات التي تقدمها أنطاكية عن سعة مثل حلبات السباق والملاعب والمسارح، كل هذا خطر على النفوس الحساسة. ومن الوصف التالي المأخوذ من إِحدى عظاته نرى أنه

كان يتردد على المسارح في حداثته، ويتأثر بشدة مما يراه: [ألم تسمع عن العاهرة التي تخطت غواياتَها كل حد؟! لا أعنى المذكورة في الإنجيل، بل تلك التي عاشت في جيلنا والتي جاءتنا من فينيقية، أكثر المدن إنحلالاً. لقد كانت زانية بيننا، لها مكان الشرف الأول على خشبة المسرح. واسمها كان عظيمًا في كل مكان، ليس في مدينتنا أنطاكية فقط بل ذاع حتى بلغ سلوكية وكبادوكية. كم من بلاد أهلكتها!.. كم من أيتام حطمتهم!... حتى إتهمها كثيرون بالشعوذة إذ ليس فقط بجمالها بل أيضًا بعقاقيرها كانت تسحَر الناس. وبلغ من عنف اغراءاتَها أن أخ الإمبراطورة سقط في حبائلها لأن طغيان سحَرها كان قويًا بالحقيقة.

ومع أنه لم يوجد على المسرح من فاقها في الإثم والدنَس إلاّ أنَها في توبتها تفوَّقت على كثيرين في العفّة، والجسد العارى سترته بالمسوح. ولما سمع الوالي بقصتها حاول، مُستعينًا بالجنود المسلحين، أن يُخرجها من مكان توبتها ويُعيدها إلى المسرح فما استطاع ولا حتى أن يبعدها عن العذارى التي كانت تعيش بينهن..][1].

ولا شك أن هذه الكلمات تفصح عن شخصية لها حساسية تجاه الرغبات الشبابية. لذلك يكشف ذهبّى الفم عن البتوليّة فهو يكتب من واقع عاشه وتمخض به، واختبر وتعلَّم كيف يقف مقابله ويسموّ به، ويصير لتعلّيمه قوة وعظمة كقول السيد المسيح: **«أمَّا من عمل وعلَّم، فهذا يُدعى عظيمًا في ملكوت السماوات»** (مت٥: ١٩).

وبعد أن اعتمَّد سنة ٣٦٩م، وكان قد وصل سن النضوج، اعتزل

(١) تفسير إنجيل متى عظة ٦٧: ٣.

المجتمع والمدينة كنصيحة ملاتيوس[1] أسقف أنطاكية، وكرّس وقته لدراسة الكتاب المقدس مع صديقه باسيليوس مُتتلمذًا على يد ديودورس الذي كان صاحب مدرسة نسكية αοκιτιριον، وقد كان مُعتدلاً في نسكه حتى أن أمه حينما توسلّت إليه ألاّ يبعد عنها إلى أحد الأديرة قَبلَ رجاءها ومكث قريبًا منها في هذا المنْسِك ولم يذهب مع رفيقه باسيليوس. ولكن عقب وفاتها غادر المدينة وإنسحب إلى الجبال.

على أن هذه النفس الممتلئة بالنار الإلهية لم تجد إشباعًا في النسك المعتدل الذي كان يمارسه فيما قبل. لذلك اضطرمت فيه الرغبة في التجرّد الكلي فإتجه إلى أحد شيوخ رهبان سوريا حيث عاش تحت تدبيره ٤سنوات، ثم بين سنتي ٣٧٨- ٣٧٩م توحّد في مغارة بجبل سلبيوس حيث كان يمضي الجزء الأكبر من أيامه ولياليه ساهرًا في دراسة الكتب المقدّسة والهذيذ الدائم فيها حتى اعتلّت صحته ورجع إلى أنطاكية سنة ٣٨٠م، وهناك سيم شماسًا في ربيع سنة ٣٨١م. ومن خلال مهام وظيفته هذه كتب الجزء الأكبر من كتاباته النسكية.

لقد أحب القدّيس يوحنا ذهبّي الفم الحياة الملائكية وعشق البتوليّة، وانطلقت نفسه من يوم إلى يوم نحو الأبديات. لكنه فى هذا كله لم يتجاهل واقعه. كإنسان يحمل جسدًا ويسكن على الأرض بين البشر، لذا مارس تمنيه بالأبدية خلال واقع عملى وكشف لنا نعمة الله الغنية العاملة في السلوك البتولي مُدعمًا أقواله بحياته، فهو لم يختار البتوليّة تفضيلاً لحياة على الأخرى، بل أراد أن يضبط شهواته وينال من السيد المسيح إكليلاً ويعيش

(١) كان قديسًا وأمينًا على الكنيسة وعقائدها واحتمل عذابات كثيرة لأجلها، لذلك سُمى بالمعترف.

بالفرح والسلام مُكملاً حياته بالنعمة والتعزية.

لقد عشق القدّيس الحياة الرهبانية والفكر النسكى المعتدل حتى امتزجت كتاباته بهذا الإتجاه كل أيام حياته. إذ نجده تارة يقول[1]: «**بالنسبة للقديس اللجوء إلى الدير هو هروب من الأرض إلى السماء!**»، وأخرى يصف الراهب فى قلايته[2]: «كأنما يسكن عالما آخر، هو فى السماء بعينها. لا يتحدّث إلا فى السمويات. عن حضن إبراهيم وأكاليل القديسين والطغمات المحيطة بالسيد المسيح».

فإذا نظرنا إلى البيئة الغنية التي نشأ فيها، ثم طفوليته وحداثته التي قضاها تحت كنف أم تّقية واعية، ثم ثقافته العالية وتَهذيبه الراقي وأخيرًا رقة جسده وصحته، نستطيع أن نحس بمدى التضحية التي قدمها بانسحابه إلى الجبال، ومدى الحب الإلهي الذي ملأ جنبات قلبه.

فمنذ القرن الرابع بدأت الكنيسة تغتني بكتابات الآباء التي تُجسد حركة الروح هذه في التكرّيس البتولي لله حتى يستحيل علينا الظن أنَّها كانت مجرد أمثلة فريدة، بل احتلّت البتولية فعلاً موقعًا هامًا على الصعيد الديني والاجتماعي ونالت كرامة في كل الأوساط أينما وُجدت جماعات مسيحية عن اقتناع راسخ، تغذيه غَيرَة المعمَّدين حديثًا الذين يمثّلون قلب الجماعة النابض.

ويتفق القديس يوحنا ذهبّى الفم مع عموم الآباء فى أن البتوليّة هى حياة حسب الإنجيل وأنَّها نعمة خاصة من الله كعطاء متبادل للشخص

---

(١) 1 Tim PG 62:575.

(٢) Matt. PG 58:643.

كله بما فيه الجسد، فيقول: «كان هناك سببان لتأسيس الزواج...الحياة بعفّة وولادة البنين» (ف١٩:١)، وهو بهذا لم ينتقص من قيمة الزواج كسّر.

ومن جهة أخرى إذ كان التطرف أمر لا يمكن تجنبه كان هناك إلى جانب هذا التيار الروحي الجارف تيارات أخرى جانبية معاكسة تنادي بفرض العفّة على كافّة المؤمنين بإعتبار أن الزيجة نجسة ولا تليق بالمسيحيين. وكانت الغنوسية تغذى هذه التيارات بما تقدمه من أساس فكرى عقيدي بالحطّ من قيمة المادة والجسد بإعتبارها نجاسة، مثل كتابات ساتورينل وماركيانوس وفالنتيوس[1]. وكان أن وقع في هذه الإنحرافات أشخاص لهم مقامهم في الفكر الكنسي مثل العلاّمة ترتليان في شمال أفريقيا والعلاّمة أوريجينوس في الإسكندرية الذي خصى نفسه خوفًا على عفّته.

ومن ثّم تنبه الفكر الكنسي لهذه الانحرافات وبدأ يعّى عواقبها وتصدّت لها الكنيسة في مجامعها مثل مجمع غانغرا بشمال أفريقيا ٣٤٠م. ومجمع نيقية ٣٢٥م. الذي نص القانون الأول فيه على تحرَّيم دخول مثل هؤلاء لمسئوليات الرعاية بكل درجاتها حتى تحتفظ الكنيسة بنقاوة التعليم والعقيدة وطهارة الحياة المسيحية. كما نشط الآباء أيضًا من جانب آخر في الكتابة والتأليف لتوضيح وتفسير هذا الموقف الجديد على المجتمع البشري ليأخذ المكانة الصحيحة فكرًا وحياة.

وعندما اعتبر بعض المسيحيين أن البتوليّة ضرب من الجنون، وقامت حملات عنيفة ضد النسك الرهباني، كتب يوحنا ذهبّى الفم كتبًا ثلاثة

(١) انظُر الحاشية الخاصة (ف ٣) ص ٣٥.

يدافع فيها عن جمال البتوليّة مُقدمًا الردود التي تُبرز بَهاء البتوليّة.

وقد جاءت هذه المقالة **«عن البتوليّة»**[1] كاحدى هذه الكتابات التي لم يقصد صاحبها أن تكون دعوة فقط لهذا النمط من السلوك المسيحي لأن الحركة كانت سابقة ونشيطة قبل كتابتها، حتى أن أنطاكية، موطن خدمة ذهبّي الفم كان بها ٣٠٠٠ عذراء وأرملة يخدّمن الكنيسة هناك. وكانت براري مصر وفلسطين وسوريا مزدانة بالغروس التي زرعها القديس أنطونيوس ومقاريوس وأولادهما في كل بقاع العالم وقتئذ.

وتنقسم المقالة إلى جزئين:

الجزء الأول: يهاجم فيه الهراطقة الذين يحتقرُون الزواج.

والجز الثاني: يقدم فيه الرؤية المسيحية للبتوليّة، وكيف أن غير القادرين على الخوض في معارك البتوليّة من أجل الملكوت لا يكرّسونَها، مُوضحًا أن الزواج صالح لكن البتوليّة أفضل.

وفى مقارنته بين الزواج والبتوليّة ربما بالغ ذهبّى الفم مُفرطًا فى وصف العراقيل التى تشغل الإنسان، كما تحدّث عن الزواج أنه لم يوجد إلا بعد سقوط آدم وحواء كعاقبه من عواقبه (ف١٤: ٦)، وهذه نظرية غير مقبولة.

فماذا كان يرمى إذن من وراء كتابتها؟...

هي كشف لحياة البتوليّة وتعريفها التعريف الصحيح...

وشرح لدوافعها ووسائلها وغاياتَها...

---

(١) PG 48: 533-596.

والحث على الصعود في الكتاب المقدس قديمه وحديثه...

والتحذير من الإنحرافات والتحديات التي تواجه السائرين فيها...

وتشجيع السائرين مقابل الصعوبات والمحاربات التي تقابلهم...

وبالنهاية هي عملية تقنين لهذه الفضيلة المسيحية بالدرجة الأولى وتحديد لمواصفاتها ومعيار تُقاس عليه كل خطوة أو مبدأ يتعلّق بِها.

❖ أولاً، تعريف البتوليّة:

ماذا تعني كلمة بتوليّة «Partheneia παρθενια؟» هذه الكلمة اليوم تُفهم على أنَّها ابتعاد عن الزيجة وضبط الجسد والنفس خصوصًا تجاه الجنس الآخر، وكلها مفاهيم ناقصة للأصل اليوناني الذي يفيد روح العذراوية بمعناه الواسع الشامل.

ويجدر بنا هنا أن نميز بين ثلاث كلمات تتعلّق بِهذا الموضوع:

١- فيما يتعلّق بالجسد، استعمل العهد الجديد والآباء الكلمة اليونانية «ακρασια» وفى الإنجليزية Self- Indulgencel التي تُرجمت في العربية عدم استقامة وعدم نزاهة (**١كو٧:٥، ٢تي٣:٣**) ومرّة أخرى «إنحلال، دعارة» (**مت٢٣:٢٥**). وكلها تعنى عدم الإنضباط الذي يؤدي إلى الإفراط في التسيّب الأخلاقي والأدبي.

٢- فيما يتعلّق بالنفس، اسُتعملت الكلمة اليونانية «ενκρατεια» وفى الإنجليزية Self- Control التي تُترجم ضبط النفس، الإعتدال، التعفّف. وبحصر المعنى تفيد تسلّط الإنسان على شهواته ورغباته فلا تسيّره حسب أهوائها بل يتحكم فيها الإنسان ويضبطها وفقًا لمبادئ واقتناعات تؤدي

بالنهاية إلى الحرية الإنسانية بمفهومها البشري. وهذا لا يتأتي إلاّ بالتدريب والترويض لطاقات الإنسان الذهنية والأدبية. أمَّا فى العهد الجديد فالتعفّف هو ثمرة من ثمار الحياة التى بحسب الروح القدس (**غل٥: ٢٣**)، وحياة الإيمان المجتهد (**٢بط١: ٦**).

٣- أمَّا العفّة «αγνια» وفى الإنجليزية Chastity فهي الطهارة الحقيقية والإخلاص القلبي وعدم وجود ما يشين الإنسان سواء في علاقته مع الله أو في سلوكه وأخلاقه. فهي في المسيح صفة إلهية (**١يو٣: ٣**) حتى أن النفس تصير مخطوبة لله كعذراء **عفيفة** (**٢كو١١: ٢**).

هذه الكلمات تتجمع في مفهوم واحد يشمل الجسد والنفس والروح، مفهوم متكامل هو «παρθενια» أو «البتوليّة». وغياب أي عنصر فيها هو انتقاص للبتوليّة، حتى أن ما يُشين الجسد يسئ أيضًا إلى النفس والروح[١].

كما أن الذي بلغ إلى أعنف أنواع الضبط للجسد ولم يتحفَّظ لأفكاره لا يُسمى بتولاً ولا تُسمى عذراء. لأن التكامل بين الجسد والنفس والروح هو الذي يعطى للبتوليّة معناها العميق ويجعل لها الصبغة المسيحية الممدوحة في السماء وعلى الأرض:

[هل هو الملبس الخشن؟ ليس بالرداء ولا بالمظهر- لكن بالنفس والجسد. فالفيلسوف لا يُحكم من ضفائر شعره ولا من عصاه، ولا من متاعه الذي يحمله. ولكن من سلوكه ومن ذاته، الجندى لا يحمل لقبه من

---

(١) هذا التعريف بالبتوليّة تقليدي في الكنيسة مستلّم من الأقدمين. أوريجينوس يقول: «طهارة الجسد تُهيـئ لطهارة النفس وتسهلها، والكل من الله» (على سفر العدد٢٤: ٢). «الذي يحيًا في العفّة فقد قدَّس جسده للرب» (نفس المرجع)، ميثوديوس، المائدة ف٨: ١، ف ١١، إكليمندس الإسكندري.

معطفه ولا من جراب سيفه ولكن من بأسه وشجاعته. هكذا الفتاة الصغيرة، المستحقّة للإعجاب لأنَّها غلبت كل ما هو بشري، فصفة العذراوية لا تُنسب لها من شعرها المهمل والعينين الخجلتين والملابس الزرية! بل علينا أن نعرّي النفس ونفحص الأعماق الداخلية؟

والقديس بولس الرسول، واضع قوانين هذا الجهاد لم يسمح بذلك، أن الذين يجاهدون في هذا الشأن أن يُحكم عليهم من الملبس، بل من المبادئ والأعماق الداخلية «من يجاهد **يضبط نفسه في كل شيء**» (**١كو٩:٢٥**)، أي في كل ما يُتلف النفس، وأيضًا «**لا يُكلّل إن لم يجاهد قانونيًا**» (**٢تي٢:٥**)، حسنًا، وما هي قوانين هذا الجهاد؟ اسمع أيضًا أقوال الرسول، بل كلمات المسيح نفسه واضع ناموس هذا الجهاد «العذراء **مقدسة جسدًا وروحًا**» (**١كو٧:٣٤**)] (ف٧:١و٢).

[...لا يكفي العذراء (البتول) أن تكون طاهرة بجسدها فقط، بل بالنفس أيضًا حتى تكون مستعدة لقبول العريس الحقيقي. كيف يمكن لتلك أن تكون طاهرة مع سمات كهذه؟ إن التي وسمت قلبها بالحديد والنار وأفرغته من الهموم الزمنية وهيأته لسكنى العريس، كيف يمكنها حفظ بَهاء البتوليّة إذ كان الفكر النجس مستوطنًا في القلب؟] (ف٥:٢).

وإذا اقتصرت البتوليّة على مجرد نزاهة الجسد فلا تختلف عن عملية خصى الأعضاء لأن الكبت بواسطة الإعتزال الجسدي لا يمنح روح البتوليّة للإنسان المسيحي الذي واجبه أن يتسامى على الشهوة لا أن يتخلّص منها أو يُطفئها. وإرادة البتول وطاقته الأخلاقية لازمة للإمتناع الحرّ عن كل ما يسبب عدم طهارته ولو بطريقة عارضة. والنّية الشريرة حتى إن لم تكمل

قصدها بالمباشرة الفعلية فهي مسبّة للنفس. والرغبة غير الطاهرة إذا رضى بها البتول تُعتبر خطية عظيمة لا تقل عن الفعل الجسدى، أو كما يقول ذهبّى الفم:

[...النظرة الخاطفة الفاحصة للمرأة لا تدع صاحبها يفلَت من العقاب] (ف٨٣:٢).

[...الجسد لم يتخلّص من النجاسة، إن كان التجديف والكلام القبيح مازال يتوالد فينا ويلبث ساكنًا في النفس الداخلية. إذ ينضح على اللسان والفم الذي يتكلّم بها والآذان التي تسمعها كالسم القاتل المُنسكب في داخل النفس، وكالآكلة التي تقرض جذور الزرع، فينهدم معها الجسد بأكمله. فإن كانت البتوليّة تعرَّف أنَّها قداسة الجسد والروح، وإن كانت الفتاة جاحدة للإيمان قد نجست الجسد والروح معًا، كيف تُدعى إذن عذراء؟ هل من وجهها الشاحب وأعضائها الضامرة وردائها الحقير ومنظرها الوضيع؟ ما فائدة كلّ هذا إن كانت البصيرة الداخلية فاسدة؟... وهل هناك فساد أكثر من عين تنظر إلى أعمال الله أنَّها شرّ؟!...] (ف٦:١).

وهكذا انتقل ذهبّى الفم من بكورية الأعضاء وضبط الجسد إلى عفّة النفس، فالجسد بذاته ليس شرًّا ولا مصدر الشرّ. وإنما النجاسة تنبع من الداخل، من الإنسان الجواني.

وقد جاءت أغلب فصوله (٢٤-٨٤) تفسيرًا مطولاً لكلمات الرسول في (**١كو٧:٣٨**)، مُوضحًا أن الزواج صالح لكن البتوليّة أفضل وقد أشار

القديس لهذا العمل أثناء عظاته على الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس[1] التي أُلقيت في أنطاكية.

ما أشد حاجتنا للتأمل في هذه الكلمات، إذ يظن البعض أن التدّين يُلزم الإنسان بالوقوف سلبيًا من خليقة الله، ويتخذ من الشكل الخارجي ستارًا يخفي في أعماقه نفسًا تنفر وتدَين وتَهرب من مواجهة الحقيقة داخل نفسه. أنَّها إذًا دعوة لليقظة والانتباه والحذر من تدّين منحرف تحت اسم البتولّية.

✠ ✠ ✠ ✠

(١) In 1 Cor, Hom 19:6.

١- بتوليّة الهراطقة لا تستحق المكافأة.

١- اليهود يزدرون بجمال البتوليّة، وإن كان هذا شيء لا يُثير الدهشة فقد حقّروا المسيح نفسه المولود من عذراء، أمَّا اليونانيون (الوثنيين) فيُعجبون بها ويوقّرونَها. ولكن الوحيدة التي نذرت نفسها بغَيرَة هي كنيسة الله، بالنسبة لى، لا أستطيع أبدًا أن أدعو عذارى الهراطقة أنَّهن كذلك. وذلك لأنَّهنّ غير عفيفات، فهن لسن مخطوبات لعريس واحد كما يوّد المطوّب إشبين[1] المسيح، إذ يقول: **«لأنى خطبتكم لرجل واحد. لأُقدِّم عذراء عفيفة للمسيح»** (**٢كو١١: ٢**)، مع أنّ هذه العبارة قيلت بخصوص الكنيسة، إلاّ أنّها تخصّ العذارى أيضًا، فهؤلاء اللواتى لا يكتفين بهذا العريس الواحد ولكن يرتبطن بآخر ليس بإله، كيف يمكنهنّ أن يكنّ عفيفات؟

٢- هذا هو السبب الأول الذي لأجله لا نستطيع أن ندعوهنّ عذارى. أمَّا الثاني: فإنَّهنّ يعتبرن الزواج شيئًا دنسًا، وبالتالى يمتنعن عن الزواج، إذ يُسلّمن بأنه شرّ، فيَحرِمن أنفسهن مُقدماً من إكليل البتوليّة، إن الإمتناع عن الشرّ لا يعطى الحق في الحصول على الإكليل، بل يُعفي فقط من العقوبة، وهذا الأمر لا نجده فقط في شرائعنا، بل أيضًا في شرائع الغرباء. فالناموس يقول: «من قتل يُقتل»، ولكنه لم يقل أن «من لم يَقتل يُكرَّم»، ويقول أيضاً: «أن السارق يُعاقب»، ولكنه لا يُنعَم على من لم يسرق ممتلكات الغير. وإذا ما كان الزنا يُعاقَب بالموت، فعدم هدم زواج الآخَر لا يعطى الحق فى مكافأة خاصة. وهكذا تعطي الشريعة المدح والإكرام لمن يفعل الصلاح، أمَّا من يتجنّب الشرّ فيكفيه ألاّ يُصاب بأىّ ضرَر.

---

(١) الكلمة اليونانية المستعملة هنا تعنى ذاك الذى يقود الخطيبة إلى عريسها Νυμφαγωγος

٣- وهكذا وعلى نفس النهج، توعدّ الرب بنار جهنّم كل من يغضب على أخيه باطلاً أو يقول له يا أحمق (**مت٥: ٢٢**)، ولكنه لم يَعِد بالملكوت أولئك الذين لم يغضبوا أو الذين يُمسكون عن الشتائم، بل طلب شيئاً أكثر إيجابية من ذلك عندما قال «**أحبوا أعداءكم**» (**مت٥: ٤٤**) مُريداً بذلك أن يشير إلى أن السلوك السلبى لا يستحق المكافأة، بل علينا أن نفعل ما هو أعظم من هذا: أن نحبّهم ونودّهم، وإن كنا بهذا السلوك أيضًا لا نُعتبر جديرين بكرامة أفضل، إذ أننا لا نكون فى هذا أفضل حالاً من الوثنيين (**مت٥: ٤٧**)؟ بل يجب أن نفعل شيئاً أكثر أهمية مما سبق حتى نلتمس المكافأة.

لا تظن [يقول الرب]، إنى لم أحكمُ عليك بجهنّم من أجل أنك لم تُهين أخيك أو لم تغضب عليه. وإنك صرت بهذا جدير بالإكليل! فأنا لم أطالبك فقط بمثل هذا القدْر الضئيل من السخاء، لا، بل حتى إن لم توجّه له الإهانة وادّعيت إنك تحبه، فإنك لم تزل بعد فى مصاف العشارين (**انظُر مت٥: ٤٦**).

أتريد أن تكون كاملاً وأهلاً للسماء؟ لا تتوقّف هنا وحسب، بل ارتقِ إلى أعلى وأدرِك الأفكار التي تفوق الطبيعة البشرية نفسها، أعنى بأن تحب أعداءك.

٤- كوننا متفقون حول هذا الأمر، فليتوقّف إذاً الهراطقة عن تعذيب ذواتَهم باطلاً، إذ أنّهم لن ينالوا أيّة مكافأة. ليس معنى هذا أن الرب ظالم- حاشا- بل لكونَهم أشرّار وحمقى. كيف هذا؟ حسنًا، لقد أوضح من قبل أنه لا مكافأة لمجرّد الهروب من الرذيلة، فكيف إذن يلتمسون المكافأة وهم يهربون من الزواج على أنه كذلك؟

وكما نحن لا نظن إننا مستحقين الإكليل لكوننا لسنا زناة، فهم أيضًا كذلك لا يستطيعون أن يتذرّعوا بإنّهم غير متزوّجين. لأن هذا ما سيقوله لهم ذاك الذى سيدَين في اليوم الأخير: «إنى لم أعد بالأمجاد أُولئك الذين امتنعوا عن الرذيلة فقط- فهذا أمر ليس ذو شأن- ولكن لمن كانوا دائماً ملازمين للفضيلة، هؤلاء سوف أجعلهم شركاء في الميراث الأبدي للسماويات». فإن كنتم تعتبرون الزواج دنَسًا ونجسًا، فكيف يمكنكم أن تطالبوا بالأكاليل المعدّة لفاعلى الصلاح لمجرد أنكم ابتعدتم فقط عن الدنَس؟

٥- إن كان المسيح قد أقام الخراف عن يمينه، وأدخلهم إلى ملكوته (**مت٢٥: ٣٢**)، فهذا ليس لأنّهم لم يختلسوا أموال الآخرين، بل لأنّهم وزعوا أموالهم عليهم. لقد قَبلَ العبد الذي أودعه خمس وزنات (**مت٢٥: ١٤-٣٠**)، ليس لأنه لم يطمر وزناته، بل لأنه استثمرها وأعاد إلى سيده ضعف الوديعة التي أخذها. فمتى ستتوقفون عن السعي بلا هدف وإرهاق أنفسكم بلا طائل، كأنكم تضاربون الهواء (**١كو٩: ٢٤،فى٢: ١٦**)؟ الحقيقة أن هذا ليس بالأمر الهيّن من جهة العقوبة، كون المرء يبذل كل الجهد والعرق راغباً فى نوال المكاسب بدلاً من المتاعب والآلام التى تعرّض لها، ولكنه يجد نفسه فى اليوم الذى كان يأمل فيه أن ينال المجد فى عداد المحرومين.

٢- المراطقة سيُعاقَبون من أجل ممارستهم البتوليّة.

١- وإن كان هذا ليس الشرّ الوحيد الذي يُخشى منه، لأن عقوبتهم لن تقتصر فقط على المكاسب التى لم يعملوا من أجلها، بل إن هناك آلام أخرى أكثر هولاً تنتظرهم: النار التي لا تُطفأ، والدود الذي لا يموت، والظلمة الخارجية، والغمّ، والأنين (**مت٨: ١٢،مر٩: ٤٨**).

مثل نحن نحتاج إلى آلاف الأفواه ولفضيلة الملائكة أنفسهم حتى نستطيع أن نقدّم الشكر اللائق على عطيته هذه. لا، بل حتى إن قمنا بذلك لما وجدنا سبيلاً إلى هذا الشكر. إن الجهد الذي تتطلّبه البتوليّة إنما هو واحد عندنا وعند الهراطقة، بل ربما هو أكثر بكثير عندهم، لكن الثمر ليس هو نفسه. فبالنسبة لهم هى القيود والدموع والأنين والعقوبات الأبدية، أمَّا نحن فلنا نصيب الملائكة وكمال كل الخيرات ومصادقة العريس الإلهي.

٢- ولكن لماذا، نفس الجهد المبذول ولكن الثمار متباينة؟ ذلك لأن الهراطقة اختاروا البتوليّة ليفعلوا عكس ناموس الله، أمَّا نحن فنختارها تبعًا لمشيئته. الله يريد أن يزهد كل البشر عن الزواج، ويشهد بذلك ذاك الذى حمل المسيح فى أعماقه إذ يقول: **«أريد أن يكون جميع الناس كما أنا»** (**١كو٧:٧**)، أىّ في حالة العفّة. بيد أن المخلّص أراد أن يوفر علينا هذه المشقّة، إذ يعلَم كم أن الروح نشيط وأن الجسد ضعيف (**مت٢٦:٤١**)، فهو لم يضفى على العفّة طابع الأمر الإلزامى، بل ترك الاختيار لنا فى ذلك. فلو كان أمرًا أو قانونًا مُلزماً ما كان ينتظر الذين يحفظونه أيَّة مكافأة، بل كانوا سمعوا هذا القول: «لقد فعلتم كل ما أُمرتم به» (**انظُر لو١٧:١٠**)، ولما استطاع الذين تعدّوا هذا الأمر نوال الغفران، بل لنالوا عقوبة المخالفة. إن الرب عندما قال **«من استطاع أن يَقْبَل فَلْيَقبل»** (**مت١٩:١٢**) لم يدَن من لم يَقْبل، أمَّا الذين قَبلوا، فكشف لهم عن أهمية هذا الجهاد وعظمته. لأجل هذا قال الرسول بولس الذي يسير على خطى الرب: **«ليس عندي أمر من الرب...، ولكنني أُعطي رأياً»** (**١كو٧:٢٥**).

٣- الاشمئزاز من الزواج هو دليل سلوك شيطانى.

ولكن لا مركيون ولا فالنتينوس ولا ماني[١] قبلوا بهذا التعفّف، وذلك لأن المتكلّم فيهم هو أبو الكذاب (يو٨: ٤٤) ومُهلكَ الجنس البشري، وليس المسيح راعى الخراف الذى يبذل نفسه لأجلها (انظُر يو ١٠: ١١و١٥).

فإذا ما كانوا السبب فى هلاك من ساروا وراءهم، فهذا بالتأكيد لأنّهم أرهقوهم بتجارب عقيمة لا تُطاق، ولأنّهم قادوهم من بعدهم إلى النار المعدّة لهم فيما بعد.

٤- الهراطقة الذين يلتزمون بالبتوليّة أسوأ حظًا من اليونانيين.

١- كما أيضاً أنكم أكثر بؤسًا من اليونانيين! فاليونانيين حتى لو كانت ويلات جهنّم تنتظرهم، فعلى الأقل هم يتمتعون بمسّرات الحياة، فهم يتزوّجون ويذوقون أفراح الثروة وكل مباهج الحياة، ولكن أنتم مُعذبون وتعانون الآلام والضيق من ناحيتين، هنا في هذا العالم باختياركم وهناك في العالم الآخر رغمًا عنكم. اليونانيون لن ينالوا أيّة مكافأة أو عقوبة كثمن للصوم وللبتوليّة، أمَّا أنتم فعلى العكس، فهذا العمل الذي ترجون منه مديحًا أبديًا ستنالون لأجله عقوبة عظيمة، وستسمعون مع الآخرين تلك الكلمات:

---

(١) مانى: هو مؤسس البدعة المانويّة (٢١٥-٢٧٣م) الذى دعا نفسه «رسول الله إلى بلاد بابل» مُـدّعيًا أنـه موفَـد المسيح، وأنه تلقّى ايحاءاته من ملاك يدعى إلتاوان. وقد كرز بمعتقده المرتبط بالغنوسية فى فارس وبابل ثم قُتل صلباً على يد أحد الرؤساء. أمَّا مركيون فقد عُرف فى إيطاليا سنة ١٤٠م تابعاً لتعاليم غنوسية ترتكز على تعارض إله العهد القديم مع الإله الظاهر فى يسوع المسيح الذى ليس هو فى نظره محقّق النبوءات بل حامل رسالة جديدة، وقد بقـى مُـشايعوه ظاهرين حتى أواخر القرن الرابع. أمَّا فالنتينوس فقد درس فى الإسكندرية وعلّم ثم أتى إلى روما سنة ١٣٦م حيث اعتُبر أكثر الغنوسيين فلسفة وهو الذى ألّف فيما بعد كتاب «إنجيل الحقيقة» الغريب طبعاً عن الحق.

«اذهبوا عني ياملاعين إلى النار الأبدية المعدّة لإبليس وملائكته» (مت ٢٥: ٤١)، لأنكم حفظتم الصوم والبتوليّة.

٢- ذلك لأن الصوم والبتوليّة ليسا بخيرًا أو شرًا في حدّ ذاتهما ولكنهما يصبحان كذلك تبعًا لدوافع من يمارسونَهما. فمثل هذه الفضيلة بالنسبة للوثنيين عقيمة، إذ أنَّهم يمارسوها دون أن يكون دافعهم فى ذلك مخافة اللهٰ وبالتالي لا تعود عليهم بمكافأة. أمَّا أنتم فتحاربون اللهٰ وتستهزئون بأعماله، لأنكم لستم تحرمون فقط من أي مكافأة وحسب، بل أيضاً ستُعاقبون.

عقائدياً صرتم في مصاف الوثنيين وعلى مثالهم رفضتم الإله الحقيقي وقبلتم آلهة كثيرة. وإن كان من جهة واقع الحياة، هم أفضل منكم، لأن عقابَهم سيقتصر على عدم نوالهم أيّ مكافأة. أمَّا أنتم ستكون لكم آلام تكابدونَها فوق ذلك، وإذ كانوا هم قد استمتعوا بكل ملذّات الحياة، فأنتم ستُحرمون من خيرات هذه الحياة والحياة الأخرى.

٣- هل هناك عقاب أكثر مرارة من ألا يُكافأ الإنسان على جهده وتعبه إلا بالعذابات؟ الزناة والطمّاعون ومن يستغلّون الآخرين والسارق لقريبه، هؤلاء سيُعاقبون على هذه الشرور التي تلّذذوا بها هنا، لكن على الأقل هنا يختبرون لذّة ما، وإن كانت بالحق قصيرة جداً، لكنهم يستمتعون بها. أمَّا الذي ارتضى الفقر طواعية من أجل أن يكون غنيًا في العالم الآخر، والذي تحمّل تجارب البتوليّة من أجل أن يكون في مصاف الملائكة، هذا الإنسان فجأة وخلاف كل التوقعات يرى نفسه مُعاقباً لأجل هذا السلوك الذي كان يأمّل منه فى التمتع بالخيرات التى لا حصر لها، فإنه يستحيل وصف الآلام التي يعانيها فى خضوعه لهذا المصير الذى جاء على عكس كل آماله. أعتقد أن

ضميره سيعذّبه كالنار عندما يتحقّق أن الذين تحمّلوا تجارب وضيقات مُشابَهة لتلك التي له وهم مجتمعون مع المسيح، بينما هو يتحمّل عقوبة شديدة للأعمال التي كانت بالنسبة لهم مصدر خيرات لا ينضب، ويتحسّر كيف أن حياة صارمة جلبت له عقاب أشدّ من الذى عُوقب بـــه الزناة والفاسقين.

٥- بتوليّة المراطقة أكثر دنسًا من الزنا ذاته.

١- نعم إن عفّة الهراطقة هي أقبح من كلّ فجور، لأنّها تُقاوم الله وتُهين حكمته اللانَهائية، تلك هي الفخاخ التي ينصبها الشيطان للمتعبدين له. إن بتوليّة الهراطقة هي ابتكارًا من شرّه، ولست أنا من يزعم هذا، بل هذا كلام من لا يجهل حيله.

٢- ماذا يقول؟ **«ولكن الروح يقول صريحاً: إنه في الأزمنة الأخيرة يرتدُّ قوم عن الإيمان، تابعين أرواحًا مُضلّة وتعاليم شياطين، في رياء أقوال كاذبة، موسُومة ضمائرهم، مانعين عن الزواج، وآمرين أن يُمتنع عن أطعمة قد خلقها الله لتُتناول بالشكر»** (**١تي٤: ١-٣**). كيف إذاً يمكنها أن تكون عذراء تلك التي جَحْدت الإيمان، وأصغت للأرواح المُضلّة وأطاعت الشياطين ووقّرت الكذب؟ هل تُدعى عذراء تلك الموسومةُ الضمير؟ لا يكفي العذراء أن تكون طاهرة بجسدها فقط، بل بالنفس أيضًا حتى تكون مستعدة لقبول العريس الحقيقي. كيف يمكن لتلك أن تكون طاهرة مع صفات كهذه؟ إن التي وسمت قلبها بالحديد والنار وأفرغته من الهموم الزمنية وهيأته لسكنى العريس، كيف يمكنها حفظ بَهاء البتوليّة إذ كان الفكر النجس مستوطنًا في القلب؟

٦- أن الهراطقة الذين يمارسون البتوليّة لا يدنّسون أنفسهم فقط بل وأجسادهم أيضًا.

١- بل وحين يظل جسدها سالمًا، وأفكارها التي هي أغلى ما في نفسها فاسدة تبقى دنَسة، ماذا ينفع إن ظلّ السور قائمًا بينما الهيكل قد هدِّم؟ ما المنفعة إن كان موقع العرش بلا دنَس فى حين أن العرش قد تدنَّس؟ وحتى مع هذا فلا يمكن القول بأن الجسد لم يتخلّص من النجاسة، إن كان التجديف والكلام القبيح منذ يتولد فينا ويلبث ساكنًا في النفس الداخلية. إذ يطفح على اللسان والفم الذي يتكلّم بها والآذان التي تسمعها كالسم القاتل المُنسكب في داخل النفس، وكالآكلة التي تقرض جذور الزرع، فينهدم معها الجسد بأكمله. فإن كانت البتوليّة تُعرَّف أنَّها قدّاسة الجسد والروح، وإن كانت الفتاة جاحدة للإيمان قد نجست الجسد والروح معًا، كيف تُدعى إذن عذراء؟ هل من وجهها الشاحب وأعضائها الضامرة وردائها الحقير ومنظرها الوضيع؟ ما فائدة كل هذا إن كانت البصيرة الداخلية فاسدة؟...وهل هناك فساد أكثر من عين تنظر إلى أعمال الله أنّها شرّ؟!

٢- **«كل مجد ابنة الملك من داخل»** (مز٤٥:١٣)، أمَّا عذراء (الهراطقة) فتُخالف هذه العبارة، إذ إنّها تلّتحف بالمجد من خارج فى حين أنه ليس فى الداخل إلاّ العار والقباحة. وهنا يكمن الجُرم: في أنَّها تُبدى تحفّظًا بالغًا تجاه الرجال فى حين أنَّها تُبرهن عن جنون مُطبق تجاه الله خالقها، فهذه التي لا تجسّر أن تنظر إلى وجه رجل- هذا إن وُجدت مثل تلك المرأة وسط هؤلاء الهراطقة- تراها تنظر بعينين وقحتين لربّ البشر مُظهرة إثمها على الملأ،

ووجهها شاحب حتى لكى يقال عنها بإنّها صارت كالجسد المائت. ولأجل هذا– تحديدًا– يحق لهن علينا أن نبكيهنّ بالكثير من الدموع والحسّرة إذ أن حالتهنّ ليست عديمة الجدوى وحسب، بل هى مُهلِكة لهنّ لأنَّها سوف ترتد على رؤوسهنّ.

٧- أن البتوليّة يُحكَم عليها انطلاقًا من النفس وليس من الثياب.

١- هل هو الملبس الخشن؟ ليس بالرداء ولا بالمظهر- لكن بالنفس والجسد. فالفيلسوف لا يُحكم من ضفائر شعره ولا من عصاه، ولا من متاعه الذي يحمله[١]. ولكن من سلوكه ومن ذاته، الجندى لا يحمل لقبه من معطفه ولا من جراب سيفه ولكن من بأسه وشجاعته. هكذا الفتاة الصغيرة، المستحقّة للإعجاب لأنَّها غلَبت كل ما هو بشري، فصفة العذراوية لا تُنسب لها من شعرها المهمل والعينين الخجلتين والملابس الزرية! بل علينا أن نعرّى النفس ونفحص الأعماق الداخلية؟

٢- القديس بولس الرسول، واضع قوانين هذا الجهاد لم يسمح بذلك، أن الذين يجاهدون في هذا الأمر أن يُحكم عليهم من الملبس، بل من المبادئ والأعماق الداخلية «من يجاهد **يضبط نفسه في كل شيء»** (**١كو٩:٢٥**)، أىّ فى كل ما يُفسد النفس، وأيضًا **«لا يُكلّل إن لم يجاهد قانونيًا»** (**٢تي٢:٥**). حسنًا، وما هي قوانين هذا الجهاد؟ اسمع أيضًا قول الرسول، بل كلمات المسيح نفسه واضع ناموس هذا الجهاد **«العذراء مقدسة جسدًا وروحًا»** (**١كو٧:٣٤**).

---

(١) كانت هذه هي السمات المميزة للفيلسوف في ذاك العصر، عظات ذهبّى الفم عن التماثيل ١٧.

٨- إنه من الضرَر للعذراء أن تحتقرُ المتزوّجين.

١– رُبّ من تعترض وتقول: «ماذا يهمنى فى هذا الأمر وأنا أصلاً ودّعت الزواج؟» إن هذا بالضبط هو ما قادك إلى هذا الضلال: إذ تظنى بكونك لست معنيّة بمبدأ الزواج، أن تتعاملى مع الزواج باحتقار شديد، فتُهينين حكمة الله وتفترين على كلّ الخليقة. لو كان الزواج شيئًا دنَسًا، فكل مواليده أدنَّاسًا- وأنتن أيضاً دنَسات- حتى لا نقول أن الطبيعة البشرية كذلك، كيف يمكن أن تكون عذراء تلك التي هي دنَسة؟ هوذا نوع ثاني أو بالأحرى نوع ثالث من الفساد والدنَس ابتكرتُهنّ، ففى نفوركنّ من الزواج كأنه شيء دنَس، تُصبحن أكثر دنَسًا بِهذا الفعل من الجميع وتجعلنّ البتوليّة أكثر نجاسة من الزنا.

٢– أين أُصنّفكنّ إذًا؟ أمع اليهود؟ هم لن يحتملوا هذا إذ أنَّهم يكرمون الزواج ويبدون إعجابهم بالخلق الإلهي. هل أضعكنّ معنا؟ ولكنّكن ترفضنّ سماع كلمة المسيح المتكلّم بفم القديس بولس: **«ليكن الزواج مُكرَّمًا عند كل واحد، والمضجع غير نجس»** (عب١٣: ٤). لم يعد إذًا إلا أن أضعكنّ مع اليونانيين (غير المؤمنين)، ولكنّهم أيضًا سيرفضونكنّ كونكنّ أكثر نجاسة منهم. فأفلاطون على سبيل المثَال يقول بأن: «الذى صنع هذا الكون، كان صالحًا»، وأن: «ليس هناك أيَّ شبهة انحراف لدى من هو صالح»، أمَّا أنتم فتعتبرونه شريرًا، بل هو مُبدع الشرور، ولكن لا تخافى فلديكِ من يشاركك اعتقادكِ وهم الشيطان وجنوده، بل حتى ولا هؤلاء أيضًا، فحتى لو أشاروا إليك بهذا الجنون فلا تظنى أنّ لديهم هذه الرؤية عينها، فهم يعرفون جيداً إن الله صَالح، اصغْ إليهم وهم يقولون: **«أنا أعرفك من أنت: قدوس الله»** (مر١: ٢٤)، وأيضاً: **«هؤلاء الناس هم عبيد الله العلى، الذين يُنادون لكم بطريق**

الخلاص» (أع١٦: ١٧).

٣- هل مازلتنّ تتحدثنّ إلينا عن البتوليّة وتعتبرنّها موضع افتخار؟ ليس لكنّ أن تمدحنّ أنفسكنّ، بل بالأحري ابكينّ على أنفسكنّ ونحنّ على الحماقة التي جعلت الشيطان يكبّلكنّ، لكي يقودكنّ كالأسَرى إلى نار جهنّم. هل أنتِ غير متزوجة؟ لا يكفى هذا لتكونى عذراء. فالعذراء هى تلك التي لها مطلَق الحرية أن تتزوج ولكنها لم تفعل ذلك. ولكن، إن كنتِ ترين فى الزواج شيئًا محرَّمًا، فعملكِ الحسن هذا ليس عن اختيار من جانبك، بل هو خضوع قسرىّ للناموس الذى ارتأتيه.

٤- وتبعًا لنفس المنطق، علينا أن نفحص أيضًا مسألة الزواج. فكون الزواج مُباحًا للكل، يكون لدينا الحق من ثمّ أن نُعجَب بالذين لا يتزوّجون، أمَّا أنتنّ اللواتى وضعتن الزواج في مرتبة الخطايا العظمى فلن تستطعنّ المطالبة بالمديح لأجل امتناعكنّ عنه، لأن الامتناع عما هو محرَّم لا يعد علامة على نفس مُحبة وملتهبة، إذ أن الفضيلة الكاملة لا تقتصر على تجنّب الأفعال التي تستحق كافّة الويلات، بل على تفوقها بالسلوك الذى يحمل علامات الزهد دون التعرّض للفساد، وبِهذا تحفظ مختاريها ليس بعيدًا عن السمعة الرديئة وحسب، بل وعلى اعتبارهم من الصالحين.

٥- ما من أحد يفكر على الإطلاق في مدح الخصيان من جهة البتوليّة، لكونَهم لم يتزوّجوا، إذ أن هذا الأمر بفعل الطبيعة، كذلك أنتنّ، ما كان بالنسبة إليهن إرغام طبيعى، هو بالنسبة إليكنّ إدانة بأنكنّ ذوات نيّة سيّئة، وإن كانت الطبيعة قد حَرمت هؤلاء الخصيان من مجد البتوليّة، فهكذا الشيطان قد شوّه أفكاركنّ مع أنكنّ بالطبيعة أصحاء، وإذ يرغمكنّ على

التبتل يكبّدكنّ الآلام حارمًا إيَّاكنّ من الأمجاد. أتمتنعين عن الزواج؟ إذن فلا مكافأة لك على عدم زواجكِ، بل العذاب والعقاب.

٩- مدَح البتوليّة لا يعنى أننا نحرِّم الزواج.

١- رُبّ من يقول لي: «وأنت ألا تحرَّم الزواج؟» حاشا لى! أن أشاركك فى جنونك هذا! «فلماذا إذًا تحثّنا على البتوليّة؟» لأني أؤمن أن البتوليّة مُكرّمة أكثر من الزواج، ولا يعنى هذا أننى أضع الزواج في مصاف الأمور السيّئة، بل على العكس إنّى أمدّحه بشدّة، فهو للذين يستعملونه حسنًا ملجأ أمين للعفّة، وذلك لكبحه جماح الطبيعة، إنه كالسدَّ الذى تتكسّر عنده نِصال الشهوة، مزوّدًا إيّانا بالهدوء وجاعلاً إيّانا فى مأمن. ولكن، هناك من هم ليسوا بحاجة إلى مثل هذه الحماية، بل يستعينون بالأصوام والسهر وأنواع النسك الأخرى من أجل كبح طبيعتهم، هؤلاء أحثّهم على عدم الزواج وأن كنت لا أحرِّم عليهم الزواج.

٢- هناك فرق كبير بين الحالتين كما بين الإلزام والاختيار، المشورة تترك سامعها لكى ما يكون سيّد قراره فيما يخص موضوعها. أمَّا التحرَّيم فمعناه أنك تحرَّمه من هذه الحرية، أضف إلى ذلك أننى عندما أحثّ على البتوليّة لا أستهجن الزواج، ولا أعتبر أن من لم يسمعِ لي قد ارتكب جريمة. أمَّا أنت الذى يفترى على الزواج مُحقرًّا إيّاه ومُنتحلاً لنفسك دور المشرِّع لا دور من يقوم بالنصح، فمن الطبيعي أن تكره أولئك الذين لم يرغبوا فى سماعك، أمَّا بالنسبة لى فالوضع ليس كذلك، فأنا أُعجب بمن يتطوّعون لمثل هذا الجهاد دون أن أجرِّم من كانوا خارج حلبة الجهاد.

٣- إن من يزجّ بنفسه فى طريق رديئة يكون موضع إتهام بلا ريب، أمَّا من يختار الأقل كمالاً بين خيَرين دون أن يبلغ الأكمل فيهما فهذا يعنى بلا شك الحرمان من المدح والإعجاب المتعلّقين بهذا الأخير. لكن ليس من العدل مع ذلك أن توجِّه الملامة لمن يتزوج، وإن كنت لا أجرِّم المتزوجين فكيف يمكننى النهى عن الزواج؟ إن ما أحرّمه فى الواقع ليس هو الزواج أبدًا وإنما الزنا والنجاسة، ومن يقترفون مثل هذه الرذائل أعاقبهم وأفصلهم عن جسد الكنيسة، أمَّا الذين يتزوّجون إذ ما كانوا أعفّاء فلا أكّن لهم سوى المديح. إذًا هناك فائدة مزدوجة، أولاً ألاّ نفترى على خليقة الله، وثانيًا ألاّ نحطّ من كرامة البتوليّة، بل أن نوقّرها بالأكثر كثيرًا.

١- الذى يذمّ الزواج إنما يسئ إلى البتوليّة.

١- أن من يذمّ الزواج، هو أيضًا يقلّل من مجد البتوليّة، أمَّا مدحه فيعنى بذلك إعلاء الإعجاب اللائق بالبتوليّة وزيادة بَهائها. لأنه لا يمكن أن يكون خيرًا حقيقيًا ذاك الذى لا يبدو أنه خيرًا إلا بمقارنته بما هو شرًّا، لأن الأفضل بين الأمور الخيّرة، هذا يكون فى غاية الخير، وهكذا تظهر البتوليّة بالبهاء الذى تستحقّه، وكما فى ذمّ الزواج الطعن فى المديح اللائق بالبتوليّة، هكذا فى عدم الإفتراء على الزواج يكون ذلك مديحًا للبتوليّة فضلاً عن مدح الزواج أيضًا. هكذا الأجساد التى نعزو إليها الجمال ليست هى التى تمتاز عن الأجساد المشوَّهة وحسب، بل وعلى الأجساد السليمة التي بلا عيب.

٢- أليس الزواج حسنًا؟ إذن البتوليّة هى أيضاً مدعاة للإعجاب، لأنَّها تتفوّق على هذا الخير بقدر ما يتفوّق القبطان على البحارة والقائد على الجنود. وكما فى تقهقر الجنود من المعركة وضع القائد تحت رحمة الأعداء،

هكذا نحن أيضًا، أن أقصينا عن الزواج الكرامة اللائقة به، فهذا يعنى تشويه مجد البتوليّة وتعريضها لخطر عظيم.

٣- هل البتوليّة شيء حسن؟ هذا هو رأيي أيضًا. هل هى أسمى من الزواج؟ فى هذا أيضاً أتفق معك. وإن أردت فإليك ما أفكّر بشأن هذا السموّ: إنه سموّ السماء على الأرض، وسموّ الملائكة عن البشر، ولو استطعت الكلام بجرأة أكثر لقلت أنَّها أعظم من ذلك أيضًا. فالملائكة في الواقع لا يزوّجون ولا يتزوّجون، لأنَّهم ليسوا من لحم ودم، ولا يمضون حياتَهم على الأرض، ولا يُقاسون من سطوة الأهواء، ولا يحتاجون إلى طعام وشراب، ولا يطربون للحن شجىّ ولا يتأثرون بوجه بَهىٍّ، ولا بأىّ أمرًا آخر من هذا القبيل. وكما يمكنك أن تُعايَن صفاء السماء فى وضح النهار الذى بلا سحاب، هكذا تبقى طبيعة الملائكة بَهيّة وصافية بلا أىّ هوى.

١١- البتوليّة تحوِّل أولئك البشر الذين يعتنقونها بصدق إلى ملائكة.

١- إن الجنس البشري الأقل بطبيعته من هؤلاء الأرواح المطوّبة يحثّ كل مَلَكاته الخاصة لكى يرتفع إلى مستواهم. فكيف هذا؟ الملائكة لا يتزوّجون ولا يزوّجون، والعذراء كذلك، هم ماثلون فى حضرة الله وخدمته بلا انقطاع، والعذراء كذلك. ولأجل هذا أراد الرسول بولس أن تبتعد العذارى عن كافّة الأهتمامات الدنيوية **«لأجل اللياقة والمثابرة من دون ارتباك»** (**١كو٧:٣٥**)، فإن لم يكن فى إمكانهنّ بعدُ الارتقاء إلى السماء كالملائكة لأن الجسد يجعلهنّ هنا على الأرض، فلديهنّ هنا على الأرض تعزية عظيمة فى استقبال ربّ السماوات نفسه عندما يكنّ مقدّسات جسدًا وروحًا.

٢- هل رأيت سموّ البتوليّة؟ وكيف أنّها تَهب لمن يحيّا على الأرض حالة مماثلة لساكنى السماء؟ فهي لا تريد أن يكون من هم ملّتحفون بالجسد أقل مرتبة من القوات غير المتجسدة، بل على الرغم من بشرّيتهم تجعل منهم منافسين للملائكة. ولكن كل هذا بلا معنى بالنسبة إليكم، أنتم الذين يحطّون من شأن رفيع كهذا ويُهينون السيّد واصفين إيّاه بالشرّير. إن عقاب العبد الشرير محفوظ لكم (**مت١٨: ٣٢**)، فى حين أن خيرات عظمى ستُوهب بغزارة لعذارى الكنيسة، ما لا تدركه العين ولا الأُذُنَ ولا الفهم البشري (**١كو٢: ٩**). ولكن، لندع الهراطقة جانبًا- إذ يكفى ما قلناه فيهم- ولنتوجّه بكلامنا إلى أبناء الكنيسة.

١٢- فى أن بولس الرسول لا يقدم مشورة بشريّة عندما يقول: «أمَّا الباقون، فأقول لهم أنا، لا الرب».[1]

١- من أين يَحسن بنا أن نبدأ حديثنا؟ من كلمات الرب ذاتّها التي قالها على فم الطوباويّ بولس، ولنتيقّن من أن وصايا الرسول إنما هي وصايا الرب، فعندما يقول لنا: **«أمَّا المتزوّجون، فأوصيهم، لا أنا بل الرب»** (**١كو٧: ١٠**)، ثم يعود ويقول: **«أمَّا الباقون، فأقول لهم أنا، لا الرب»** (**١كو٧: ١٢**) فهو لا يزعم أن كلماته مختلفة فى فحواها عن أقوال الرب. إذ أن من كان المسيح مُتكلّمًا فى أعماقه ومن لم يكن ليهتّم بالحياة ذاتّها حتى يحيّا المسيح فيه (**غلا٢: ٢٠**)، ومن كان لا الموت ولا الحياة ولا الملائكة ولا القوّات وكلّ خليقة أخرى تستطيع أن تفصله عن محبته للمسيح، كيف يقبل هذا أن يتكلّم بل حتى أن يفكر في شيء لا يوافق عليه المسيح، ولاسيّما إذا ما كان قد أوصى به؟

---

(١) (١كو٧: ١٢).

٢- ماذا تعني إذاً هاتان الكلمتان «أنا»، «لا أنا»؟

لقد أعطانا المسيح الناموس والعقائد بعضًا مباشرة منه وبعضًا من خلال رسله، ولكنه لم يعط كل تلك الوصايا بنفسه. اسمعْ ما يقول: **«إن لي أمورًا كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن»** (يو١٦: ١٢). وهكذا فإن الوصية بأن **«لا تفارق المرأة رجلها»** (١كو٧: ١٠) قد سبق فأعطاها عندما كان على الأرض مُلتحفًا بالجسد، لهذا يقول الرسول بولس: **«أمَّا المتزوّجون فأوصيهم، لا أنا، بل الرب»**. أمَّا فيما يتعلّق بغير المؤمنين فلم يصرِّح الرب بشيء، بل قال فى إلهامه للرسول بولس فيما يختص بشأنّهم: **«إن كان أخ له امرأة غير مؤمنة، وهي ترتضي أن تسكن معه، فلا يتركها. والمرأة التى لها رجل غير مؤمن، وهو يرتضي أن يسكن معها، فلا تتركه»** (١كو٧: ١٢و١٣).

٣- لأجل هذا يقول الرسول بولس: «أنا، لا الرب» هنا لا يريد أن يؤكد على أن كلماته من ذاته، كيف هذا؟ بقوله أن الرب لم يُعطِ هذه الوصية لتلاميذه عندما كان في وسطهم، ولكنه أعطاها الآن من خلاَله. وكما أن عبارة **«لا أنا، بل الرب»** لا تُظهر تعارضٍ بين وصايا المسيح، كذلك عبارة **«أنا، لا الرب»** لا تعنى رأيًا شخصيًا مُخالفًا للمشيئة الإلهية، بل تُظهر ببساطة أن الوصيّة قد أُعطيت الآن بواسطته.

٤- كذلك عندما كان يتكلّم بشأن الأرملة إذ يقول إنّها تكون: **«أكثر غبطة إن لبثت هكذا، بحسب رأيي»** (١كو٧: ٤٠)، ولكيلا تُفهم عبارة «بحسب رأيي» على أنّها كلام بشرى، يُضيف، لكي يقطع الطريق أمام هذا الافتراض بقوله: **«وأظن أنّي أنا أيضاً عندي روح الله»**، وهكذا ما يقوله من قِبَل الروح يدعوه رأيه، دون أن يترك المجال لأحد من الادّعاء بأن كلامه بشرى، كذلك

الحال عندما يقول: «إنه أنا الذي يقول وليس الرب» لا يجب أن نستنتج أن الكلام هنا للرسول، وذلك لأن المسيح هو المتكلّم فيه، وهو لا يجرؤ على الإطلاق أن يقول هذا التعليم إن لم يكن قد أُعطي هذا بالإلهام.

٥- من الممكن أن يتوجّه إليه أحد بهذا الكلام: «إني لا أستطيع أن أحتمل أن أحيا مع امرأة غير مؤمنة، وأنا المؤمن، وهى ليست مؤمنة بعدُ. لقد أعلنت أنت سابقًا بأنك أنت الذي قال ذلك، لا الرب، فما الذى يجعلنى على يقين مما تقول؟»

فيجيبه الرسول بولس قائلاً: «لا تخف! لقد ذكرت أن المسيح هو المتكلّم فيّ وأنّى أظن بأن لي روح الله، فهذا لكي لا تشك أنت أبدًا وتظن أن هذه الكلمات هى بحسب الفكر البشرى، وإلا لما كنت أستطيع أن أنسب سلطانًا كهذا إلى أفكاري الخاصة، **«لأن أفكار البشر مُترددة وخواطرنا غير راسخة»** (**حك٩: ١٤**)». أضف إلى ذلك إن الكنيسة بأسرها تؤكد هى أيضًا قوة هذا الناموس إذ أنّها تمارسه بكل تدقيق، وما كانت تفعل هذا ولو لم تكن على يقين من أن هذه الأقوال هي وصيّة المسيح.

٦- إذًا ماذا يقول بولس الملهَم من الرب؟ **«وأمَّا من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها: فحسن للرجل أن لا يمسَّ امرأة»** (**١كو٧: ١**)، هنا، يمكن تَهنئة الكورنثيين الذين دون أن يتلقّوا أيّ توجيه من معلّمهم بشأن البتوليّة، يبادرون هم ليسألوه فيها، مُظهرين بهذا التقدّم الروحى الذى قامت به النعمة فيهم، ذلك أنه فى العهد القديم لم يكن ما يدعو إلى الحَيرة تجاه الزواج، فليس عامة الشعب فقط، بل اللاويون والكهنة ورئيس الكهنة كانوا يرفعون من منـــزلة الزواج.

١٢- لماذا كتب الكورنثيين إلى الرسول بولس بخصوص البتوليّة ولماذا لم يقدم لهم إرشاداته قبلاً.

١- كيف أتى الكورنثيين على طرح مثل هذا السؤال؟ لقد أدركوا بذكاء وبحق أن هناك درجة عالية فى الفضيلة هم بحاجة إليها وأنّه قد أُنعِم عليهم بِهبة عظيمة كهذه. ولكن يجدر بنا أيضًا التساؤل عن السبب الذى دفع الرسول إلى عدم تقديم هذه المشورة لهم حتى الآن؟ إذ أنّهم لو كانوا قد سمعوا من قبلاً كلاماً مُشابِهًا لما كانوا كتبوا إليه من جديد ليسألوه فى هذا.

هنا أيضًا يمكننا أن نرى حقيقة مدى عمق حكمة الرسول بولس، إن هذا لم يكن سهوًا منه ولا رغبة منه فى عدم طرح هذا الموضوع الهام بلا سبب، بل كان ينتظر أن يرغبوا هم فيها أولاً وأن يطلبوا المشورة من جهَته، ومن ثمّ يتوجّه إلى نفوس راغبة فى فكرة البتوليّة، وعندئذ يجد تربة خصبة حينما يُلقي بذار كلماته فى هذا الأمر، طالما أن سامعيه لديهم استعدادات حسنة حتى تكون الفرصة مُهيأة للسمع، فضلاً عن رغبته فى إظهار عظمة ومهابة تلك الموهبة.

٢- لو لم يكن الأمر كذلك لما انتظر مبادرتَهم السخيّة، بل لبادر وسبق هو نفسه، إن لم يكن فى صورة أمر أو وصيّة، فعلى الأقل في حثّ ونصح، أمَّا وقد رفض أن يكون هو صاحب زمام المبادرة فى ذلك، فقد أظهر لنا بجلاء أن البتوليّة تتطلّب جهوداً مُضنية وجهادًا شاقًا. وهنا أيضاً نجده يقتدى في تصرِّفه بالرب، الذى لم يتكلّم عن البتوليّة إلا عندما سأله تلاميذه.

٣- عندما قالوا له: **«إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة، فلا يوافق أن**

يتزوج»، أجابَهم: **«يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات»** **(مت١٩: ١٠و١٢)**. إذًا عندما يكون الأمر يختص بفضيلة عظيمة لا تحمل طابع الوصية الإلزامى، يجب انتظار الاستعدادات الحسنة من الراغبين تطبيقها، وتَهيئتُهم لطلبها فى فكرهم وقلبهم.

هكذا كان سلوك المسيح الذى لم يوحِ إليهم بحبّ البتوليّة فى حديثه معهم عنها، بل عندما تكلّم فقط عن الزواج مُوضحًا لهم مشقّات هذا الأمر دون استرسال من جهته، وهى طريقة بالغة الحكمة تجعلهم يقولون له «الأَولى أن لا يُتزوج»، مع أنّهم لم يسمعوا شيئًا عن الإمتناع عن الزواج.

٤– لهذا السبب، إذ كان الرسول بولس يقتدى بالمسيح قال: **«أمَّا من جهة الأمور التي كتبتم لىّ عنها»** مُبررًا بذلك سلوكه أمامهم ليقول: «إنّى لم أتجاسر من قبل على دعوتكم لمثل هذه الفضيلة العظيمة إذ أنّها صعبة المنال، ولكن، بما أنكم بادرتم فكتبتم إلىّ بشأنّها في رسالتكم، فما عاد هناك مجال للتردد فى اعطائكم هذه المشورة **«أنّه حسن للرجل أن لا يمسَّ امرأة»**».

وإذ كانوا قد كتبوا إليه فى مواضيع عديدة، فلماذا لم يُضيف هذا القول فى أىّ موضع آخر؟ هذا لأجل السبب الذي ذكرته بكلّ بساطة للتو، وهو ألا يُقابل ارشاده بسوء فهم، لذلك راح يذكّرهم بالرسائل التى سبق أن أرسلوها إليه. وحتى حينئذ لم يُبد أىّ حماسة فى ارشاده على الرغم من الفرصة المتاحة له، بل كان يتصرّف بتحفظ شديد مقتديًا بالمسيح، لأن المخلّص بعد أن أنَهى كلامه عن البتوليّة، أضاف قائلاً **«من استطاع أن يَقبل فَليَقبل»** أمَّا هو فماذا يقول؟ **«أمَّا من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها: فَحَسن للرجل أن لا يمسَّ امرأة»**.

١٤- ردّ على اعتراضات رافضي البتوليّة.

١- رُبّ معترض يقول: «إذا كان حسن ألا نمسَّ امرأة»، فلماذا الزواج؟ وما هو دور المرأة إذًا طالما أنّها ليست للزواج ولا لإنجاب البنين؟ وما الذي سيمنع انقراض الجنس البشري إن كان الموت يرعى فيه كل يوم، فلا يمكن والحالة هكذا أن يحلّ أحد محلّ الذين ماتوا؟ فلْنهبْ أننا قد مارسنا جميعًا هذه الفضيلة، ولم يعد أي أحد يرتبط بأيّ امرأة، عندئذ سيزول كلّ شيء: المدن والبيوت والحقول والوظائف والكائنات الحيّة والزرع. وكما يتبدُّد الجيش عند مقتل قائده، هكذا سيختفى الإنسان تاج الخليقة بعدم الزواج، ولن يوجد أىّ كائن على الأرض يستطيع أن يحفظ نظام الكون.

٢- لو كانت هذا الأقوال هي لغة المعارضين وغير المؤمنين وحسب، لما كنت أعَرتَها أي اهتمام، ولكن للأسف كثيرين مّمن يُحسَبون منتمين إلى الكنيسة يفكّرون هكذا. فهم لضعف إرادتَهم يستصعبون الجهود التي تتطلّبها البتوليّة فيذمّونَها لأجل إظهار أنَّها عديمة الجدوى، وحتى ما يُخفوا رخاوتَهم ويعطوا الانطباع بأنّهم إنما تجنّبوا هذا الجهاد لمعرفتهم الحقيقية بهذه الدوافع، لا جنبًا منهم. مرّة أخرى، ودون اكتراث لهؤلاء الذين يزعمون بأنّهم منا «لأن الإنسان النفساني لا يقبل ما هو لروح الله، لأنه عنده جهالة». ها نحن نقول لهم أمرين اثنين: أوّلهما أن البتوليّة ليست عديمة الجدوى، بل نافعة وضرورية أيضًا. وثانيهما أن من يوجّه اتهامًا كهذا لا يمكن أن يبقى بدون عقاب، فكما ستكون المكافأة والمديح لمن يمارسونَها، هكذا بنفس القدْر ستكون المخاطر جّمة على من يذمّونَها.

٣- إن الله صنع كل شيء من أجل راحتنا وخدمتنا في هذا العالم قبل أن يخلق الإنسان، والذي صار يعيش والحالة هذه في الفردوس حيث لم يكن الزواج واردًا. وإذ كان بحاجة إلى مُعين أُعطيت له المرأة، دون أن يبدو الزواج ضروريًا بعدُ، بل لم يكن هناك أي ذِكَر لِمثل هذا الموضوع، بل كان الاثنان يعيشان في الفردوس مستمتّعين بالعشرة مع الله. أمَّا الرغبة في الزواج والحمل والأوجاع والمخاض وكل هذه الأشكال فقد كانت غريبة عنهما، وكما يجرى النهر من ينبوع صافي، هكذا فى ذلك المكان كانت البتوليّة تُزين حياتَهما.

٤- لقد كانت الأرض كلّها خالية من البشر آنذاك. أليس هذا ما يخشاه اليوم أولئك القوم المنشغلون بالمسكونة والذين ينتابَهم القلق دائمًا لشؤون الآخرين دون أن ينتبهوا بالأحرى إلى ما يخصهم: فهم يخشَون أن ينقرِض يومًا الجنس البشريّ بأكمله، وعلى الرغم من هذا فأنّهم يتعاملون مع نفوسهم وكأنّها غريبة عنهم ويُهملونَها في حين أنّهم سوف يقدمون عنها حسابًا عسيرًا، حتى ولو كانت زلاّتهم ضئيلة، أمَّا تفكيرهم بشأن انقراض الجنس البشري فهذا أمر لا شأن لهم به.

٥- لم تكن آنذاك مدن أو وظائف أو بيوت. ولم يكن هناك أي اهتمام بِهذه الأمور، إذ لم يكن بعدُ هناك شيء من هذا القبيل، ولم يكن هناك شيء يُعيق هذه الحياة المباركة والأفضل بكثير من حياتنا ولا أن يضرَ بها. ولكن، لّما عصيا الله وصارًا ترابًا ورمادًا، خسرًا مع هذا الحياة المباركة بَهاء البتوليّة التي تركتهما ومضت مع الله.

وبقدر ما لبثا غير متأثّرين بإغراءات إبليس وموقّرين لسيّدهما، كانت البتوليّة تواكبهما، كزينة لهما أثمن ممّا للتيجان والثياب المذهَّبة بالنسبة إلى الملوك، إلاّ أنّهما حالما سقطا في العبوديّة خلعا هذا اللباس الملوكي وفقدا زينتهما السماوية، وصارا من ثمّ عرضة لفساد الموت، واللعنة، والألم، وعناء الحياة (**تك٣:١٦-١٩**)، ومع هذا الموكب الجنائزى برز الزواج، كلباسًا فانيًا[1].

٦- ذلك أن المتزوج- كما يقول الرسول بولس- إنما يهتم بما للعالم (**١كو٧:٣٣**). هل رأيت كيف كان أصل الزواج ولماذا بدا ضروريًا؟ إنه أتى نتيجة العصيان واللعنة والموت[2]، فحيث الموت فهناك الزواج، وإن نُزع أحدهما غاب الآخر أيضًا. بينما البتوليّة ليست كذلك، فهي نافعة دائمًا، جميلة دومًا ومطوّبة، قبل الموت وبعده، قبل الزواج وبعده. قلْ لي، من أيّ زواج وُلد آدم؟ ومن أيّ مخاض وُلدت حواء؟ بالطبع لن يكون لديك ما تقوله. لماذا إذًا هذا القلق وهذا الخوف من أن يكون في عدم الزواج نهاية الجنس البشري أيضًا؟ إن ربوات من الملائكة يخدمون الله وألوف ألوف من رؤساء الملائكة يقفون أمامه، ولم يأت أيّاً منهم من تناسلٍ ولا من مخاض أو أوجاع أو حمَل. ألم يكن أسهل على الله بكثير أن يخلق بشرًا من دون زواج؟ نعم، فهكذا خَلق أبوينا الأوّلين اللذين أتى منهما كلّ البشر.

(١) يفسر ذهبّى الفم «الأقمصة من الجلد» (تك٣:٢١) بأنّها تعنى الزواج.

(٢) أرجو الرجوع إلى تمهيد الكتاب (المترجم).

١٥- الزواج لا يزيد الجنس البشري.

١ – وحتى يومنا هذا، جنسنا لا يتكاثر بفضل الزواج، بل بكلمة الرب الذي قالها في البدء: **«أثمروا واكثروا واملأوا الأرض»** (**تك١ :٢٨**). قلْ لي، بما ساعد ناموس الزواج إبراهيم من أجل إنجاب الأولاد؟ ألم ينته به الحال بعد سنوات عدّة من زواجه إلى التعبير عن أنينه قائلاً: **«أيها السيد الرب، ماذا تعطيني وأنا ماض عقيمًا؟»**.

فكما أراد الله آنذاك أن تكون هذه الأجساد الميتة أصل وسبب إنجاب الكثيرين، هكذا كان سيكون الحال لو أن آدم وحواء أطاعا الوصية في البدء ولم يأكلا من شجرة معرفة الخير والشرّ، لما صعب عليه ايجاد وسيلة ما لزيادة الجنس البشري. فالزواج بدون إرادة الله لا يستطيع أن يُكثر البشر على الأرض، كما وأن البتوليّة لا تستطيع أن تؤثر على عددهم، إذا ما أراد الله ازديادهم. ولكنّه أراد أن يجرى الأمر بِهذه الطريقة، كما يقول الكتاب بسببنا ونتيجة عصياننًا.

٢ – لماذا لم يظهر الزواج قبل السقوط؟ ولماذا لم يحدث زواج في الفردوس؟ ولماذا لم يكن هناك مخاض قبل اللعنة؟ لأن هذه الأمور كانت غير ضرورية آنذاك، ولم تعد كذلك إلاّ فيما بعد بسبب عجزنا، هي وكلّ الأمور الأخرى: المدن والوظائف وسائر احتياجتنا الأخرى، إذ أتى الموت بكل هذا فى إثره. أسألك إذًا: ألست تفضّل (الزواج) أى ما هو مجردّ تساهل تجاه ضعفك على البتوليّة، بل وحتى لا تجعله معادلاً لها أيضًا! أنك إذ تذرعت بِهذا الكلام (أى القول بأن الزواج ضرورى لزيادة الجنس البشرى) سينتهى بك الأمر إلى الزَعم بأنه من الأفضل اتخاذ زوجتين بدلاً

من واحدة- وهذا ما كان مسموحًا به في ناموس موسى- وبالتالي إلى تفضيلك الغنى على الفقر الاختياري، والمتعة على حياة العفّة، والانتقام إزاء الإهانة بدلاً من الصبر.

١٦- في أن الزواج سماح.

١ - ربما يقول لي أحد: «هوذا أنت الآن من يذمّ كل هذا». إنني لا أذمّه البتة، لأن الله هو من سمح به، كما أن لكلّ شيء نفعه في حينه. أقول إنه أقل أهمية بالنسبة إلى البتوليّة كما وإنه كفضيلة الأطفال بالنسبة لفضيلة البالغين. ولهذا إذ أراد المسيح أن يُبدع كمالنا، أوصانا بالتجرّد عنه اختياريًا كمثل ثياب الأطفال التي لا يستطيع أن يرتديها الإنسان البالغ والتي لا توافق قامة ملء المسيح (**أف٤:١٣**)، طالبًا إلينا أن نرتدى ثيابًا أكثر ملائمة وكمالاً من تلك التي لهؤلاء.

٢ - لو كانت هذه التدابير الجديدة أرفع شأنًا من تلك التي أُعطيت للقدماء، لكان هدف المشرّع قد تغيّر على الأقل، وماذا كان هذا الهدف؟ أن تُنـــزع الخطية منا حتى تُقاد نفوسنا إلى الفضيلة الكاملة.

إذًا، لو كان يريد ألاّ يُلزمنا بما يفوق من سبقونا (القدماء) دون أن يخلّص الإنسان من طفوليته وتركَ الأمور على حالها، لكان عندئذ في تناقض كامل مع نفسه. إذ أن الله لو وضع في البدء طريقة حياة شاقّة كهذه عندما كان الجنس البشري بعدُ في بدايته (طور الطفولة)، لما كنّا قد بلغنا البتة إلى هذه القامة التي صرنا بها مؤهلين للخلاص. وكذلك أيضًا بعد تعلّيم استغرق زمنًا طويلاً تحت الناموس القديم، حان الوقت لدعوتنا إلى مثل هذه الفلسفة السماوية، فلو أن الله تركنا ملتصقين بالأرض لما كنّا

قد انتفعنا بشيء ذى قيمة من تنازله، ولما كنّا قد اشتركنا في هذا الكمال الذي كان الغاية من تنازله.

١٧- في التنازل الإلهي.

١- إن ما يحدث لنا شبيه بما يجرى للعصافير الصغيرة. فبعدما تقوتَها أمها تدفعها إلى حافّة العشّ، وإذا ما رأتَها ضعيفة متردّدة مُحتاجة بعدُ أن تمكث داخل العشّ تتركها فيه بضعة أيام أخرى، حتى ما تكتمل أجنحتها، وتكتسب كامل قوتَها آنذاك ومن ثمّ تصبح قادرة على أن تطير بكلّ أمان. هكذا منذ البدء كان ربنا يجتذبنا نحو السماء مُظهرًا لنا الطريق المؤدّية إليها- مع علمه بعدم قدرتنا بعدُ على التحليق- مُريدًا أن يبيّن لنا بأن سقطتنا كانت بسبب ضعفنا ولم تكن بحسب مشيئته، وعلى مثَال هذا الدرس، ترك الجنس البشري ينمو في عشّ هذا العالم الأرضي والزواج زمنًا طويلاً.

٢- وبعد هذا الزمان الطويل الذي كانت تدفعنا فيه أجنحة الفضيلة، بتؤدة شيئًا فشيئًا، أتى هو ليُخرجنا من هذا العشّ الأرضي مُعلّمًا إيانًا التحليق عاليًا. أمَّا هؤلاء الذين لازالوا بعدُ غير مهتمين والمستغرقون في نوم عميق فهم بالطبع يرضون بالبقاء في العشّ، ملتصقين بأمور العالم، لكن القادة الحقيقيّون وعاشقوا النور يتركون العشّ بسهولة تامة مُحلقين نحو الأعالى ملامسين السماوات، تاركين كلّ ما هو على الأرض: الزواج والثروة والهموم وكلّ ما من شأنه عادة أن يجذبَهم نحو الأرض.

٣- ولكن، لا تظنوا بأن السماح بالزواج الذي أُعطى في البدء قد صار مُلزمًا للأزمنة اللاحقة وبالتالي يحظر علينا تجنّب الزواج، إلا أنه يريدنا أن نزهد فيه. أصغْ إلى ما يقوله: **«من استطاع أن يَقْبَل فَلْيَقبل»** **(مت١٩: ١٢)**. فكونه لم يضع هذا الترتيب في البدء، فهذا شيء لا يدعو للدهشة، فالطبيب- على سبيل المثال- لا يصف لمرضاه كل وصفاته دفعة واحدة، ولا في ذات الوقت، فعندما تعتريهم الحمّى فهو ينهاهم عن نوع معين من الطعام، وعندما تفارقهم الحمّى والإرهاق الجسدي المصاحب لها، يُعيدهم إلى نظامهم الذى اعتادوا عليه. وكما أن المرض ينتج عن اختلال وظائف الأعضاء داخل الجسم، هكذا التخبط في رغبات النفس يدمر صحّتها. لذلك يجب الحصول على الوصفة الملائمة لكبح الأهواء المتخالفة في الوقت المناسب، أمَّا في حالة فقدان هذين الشرطين، فالناموس سيكون عاجزًا في ذاته عن إصلاح مرض النفس. والأمر ذاته بالنسبة إلى الأدوية التي يمكن أن تشفي الجرح، فكما الأدوية بالنسبة إلى الجراح، هكذا الناموس بالنسبة إلى الخطايا.

٤- عندما يلجأ الطبيب غالبًا- لأجل الجرح ذاته- إلى المبضع تارة أحيانًا، وإلى الكيّ أحيانًا أخرى أو إلى عدم استخدام هذا أو ذاك، فلا أحد يزعجه بأسئلة فضولية مع ذلك، مع أنه كم من المرات يكون علاجه غير ناجح! أمَّا الله المنــــزه عن الخطأ، والذي يسوس كلّ شيء كما يليق بحكمته، فإنك مع كونك مجرد إنسان تريد التدخل في اموره مُريدًا أن يقدم لك مبرراته بدلاً من أن تخضع بالحريّ لحكمته اللاّمتناهية! أليس هذا منتهى الحماقة؟ لقد قال: «انموا واكثروا» لأن الوقت كان يتطلّب ذلك، إذ كانت الطبيعة عاجزة عن لجم حدّة الأهواء، ولم يكن لديها ميناء آخر

تلجأ إليه فى وسط هذه العاصفة!

٥- ماذا كان سيصف لهم آنذاك؟ هل أن يعيشوا في العفّة والبتوليّة؟ إنه بِهذا سيجعل السقطة أشدّ خطرًا والشهوة أشدّ اضطرامًا. إن الأطفال الذين لا يحتاجون إلاّ إلى اللبن، إذا ما حُرموا منه وأُجبروا على استبداله بغذاء البالغين، ماذا سيحدث لهم إلاّ أن يموتوا سريعًا؟ فإنه لا شيء أسوأ من أن يكون التصرّف في غير وقته المناسب (**انظُر ١كو٣:٢**). لأجل هذا السبب لم تُعط البتوليّة منذ البدء، لأنه لو ظهرت فى ذلك الوقت، ثم جاء الزواج لاحقًا كما ذكرنا لأُعتبر ضروريًا، في حين أن آدم لو ثبت في الطاعة لما كان هناك احتياج للزواج. إذاً- تقول لي- كيف ستولد ربوات الأجيال؟ وأنا بدوري أجدِّد سؤالي، لأن هذا الخاطر مازال يُقلقكم بقوة: «كيف وُلد آدم وكيف وُلدت حواء في حين أنّهما لم يأتيا من زواج؟» فتقول: «هل كان إذاً على كلّ البشر أن يولدوا على هذا النحو؟» سواء على هذا النحو أو آخر، لا أدري. بل ما يهمّنا الآن هو أن الله لم يكن بحاجة إلى الزواج حتى يتكاثر الجنس البشري على الأرض.

١٨- ليست البتوليّة، بل الخطية هي التي تُنقص الجنس البشري.

ليست البتوليّة هى ما قد يسبّب انقراض الجنس البشري، بل الخطية والإنحراف، وقد ظهر هذا واضحًا في الهلاك الذي أصاب البشر في زمان نوح، بل، والبهائم وكل ما كان يتنفس على الأرض. فلو قاوم بنو الله هذه الرغبةً غير الطبيعة، موقّرين البتوليّة ومُحجمين عن النظرة الآثيمة إلى بنات الناس (**تك٦:٢**) لما أصابتهم كارثة كهذه. ولا يتصوّر أحد أنني أعتبر

أن الزواج مسئولاً عن هلاكهم، فهذا ما لا أقوله هنا، وإنما فناء الجنس البشري إنما يُعزي إلى الخطية، لا إلى البتوليّة.

١٩- الزواج قديمًا كان لسببين اثنين وأمَّا الآن فلسبب واحد.

١- إن الزواج أُعطى من أجل ولادة البنين، وإن كان بالأكثر أُعطى من أجل الحياة بعفّة. ويشهد على ذلك الرسول بولس بقوله: **«ولكن لسبب الزنا، لتكن لكل واحد امرأته»** (١كو٧:٢)، ولم يقل لولادة البنين. وعندما يدعوهما إلى استئناف حياتَهم المشتركة فليس من أجل الحصول على أبناء كثيرين، كيف هذا؟ يقول: **«لكي لا يجرّبكم الشيطان»** ولا يقول بعد ذلك بقليل: «إن كانوا يرغبون في البنين»، بل «إن لم يستطيعوا أن يضبطوا أنفسهم، فليتزوّجوا».

لقد سبق وقلت لقد كان للزواج سببان في البدء، ولكن بعد أن امتلأت الأرض والبحر والمسكونة بأسَرها لاحقًا، لما يعد هنالك سوى سبب واحد، ألاّ وهو كبح جماع الزنا والمجون.

٢- إن منفعة الزواج ليست بقليلة، لمن لا يزالون بعد متمرّغين في هذه الأهواء متوخّين حياة النجاسة والهلاك في الحانات، إذ إنه يُعتقهم من هذه النجاسة ومن هذا الطغيان ويؤمّن لهم الوقاية ومن ثمّ القداسة والعفّة. لنكتفي بهذا، فعلام هذا السجال غير المبرّر؟ فأنكم -مع اعتراضاتكم لي- تعلمون مثلما أعلم أنا سموّ البتوليّة، وكل ما قلتموه بالتالي ليس سوى أعذار وحجج للهروب من عدم التعفّف.

٢٠- الاستخفاف بالبتوليّة ليس بخطير وإن كان ليس مأمون الجانب.

حتى ولو لم يكن هناك مخاطر في تبنى هذه الأقوال، إلاّ أنكم مُلَزمون اليوم بوضع حدّ لهذا الافتراء. فالذي يُبدى استهجانه بالأمور الصالحة، إنما هو يعطى شهادة صادقة عن مكره وخبثه، فضلاً عن أن إصداره لمثل هذا الحُكم المنحرِف الذى لا أساس له يسبِّب الكثير من الأذى، فحتى ولو لم يكن هنالك دافع آخر، فليكن الخوف من أن تلتصق السمعة السيّئة بكم رادعًا لكم عن مثل هذا الكلام، تأمّلوا في هذا:

إن المُشاهد الذي يصفّق للأبطال العظام فى الحلبة حتى وإن كان لا يستطيع أن يتبارى مثلهم، يمكنه الاستفادة على الأقل من الإستحسان العام لكونه لم يتعرّض بكلمة سوء لمن هم فى الحلبة، أمَّا ذاك الذي لا يشارك في التصفيق، بل يذمّ المآثرَ المستحقة لنواهم تلك الأكاليل، فهذا سيُقابل بالاستنكار العام، كعدو وخصم للجدارة، ويكون أكثر شقاءً من المجانين لأن هؤلاء لا يعرفون ما يفعلون - ولذلك عندما يُهين هؤلاء المجانين أقوياء اليوم، فإنّهم يُشفقون عليهم بدلاً من معاقبتهم- أمَّا الذى يجرؤ عن خبرة، على ارتكاب ما يفعلونه هؤلاء عن جهل، فهذا يُحكَم عليه بحق وبإجماع وسينال عقوبة بلا شفقة كعدو للطبيعة البشرية.

٢١- خطر عظيم يلَحق بالمستخفّين بالبتوليّة.

١- لقد سبق وقلت إنه لو كان اتهامًا مماثلاً، حتى ولو لم يشكّل أي خطر، فيجب على الأقل الامتناع عنه لأجل الأسباب التي ذُكرت سابقًا.

لأن المسألة في الواقع تتضمّن خطرًا جسيمًا، إذ أنه لن يُعاقب فقط ذاك الذي: **«تجلس تتكلّم على أخيك، لابن أُمك تضع معثرة»** (مز٥٠: ٢٠)، بل أيضًا لذاك الذي يذمّ ما هو صالح عند الله. اسمع ما يقوله نبي آخر في هذا الشأن: **«ويل للقائلين للشرّ خيرًا وللخير شرًّا، الجاعلين الظلام نورًا والنور ظلامًا، الجاعلين المرَّ حلوًا والحلو مرًّا»** (إش٥: ٢٠). أي شيء تراه أكثر بَهجة وأكثر صلاحًا وأكثر إشراقًا من البتوليّة؟ إنَّها تتلألأ ساطعة أكثر من أشعة الشمس، محوّلة إيّانا من الأرضيات ومُعدّة إيّانا لمعاينة شمس البرِّ بأعين نقيّة لا يتحرّك لها جفن. هذا قد نادى به إشعياء لمن لهم أراءً وأحكامًا منحرفة.

٢- اسمع أيضًا ما يقوله نبي آخر على من يتفوّهون بِهذه الكلمات القاسية ضد الآخرين. إنه يبدأ بالمناداة عينها قائلاً: **«ويل لمن يسقى قريبه من كأس سمّه»** (حب٢: ١٥س). وكلمة «ويل» هنا ليست مجرّد كلمة بسيطة يُنطق بِها، بل هي وعيد يُنذرِ- من أجلنا- بعقاب لا يُوصف ولا شفقة فيه، فهذه العبارة إنما استُخدمت في الكتب المقدسة بصدّد أولئك الذين لا يستطيعون إقصاء العقاب الذى فى انتظارهم.

٣- هناك نبّي آخر يقول في مهاجمته اليهود: **«لكنكم سقيتم النذيرين خمرًا»** (عا٢: ١٢) فإذا كان تقدّيم الخمر للنذيرين يؤدي إلى عذابًا كهذا، فأي عقاب يستحقّه ذاك الذي يسكب السمّ في نفوس البسطاء؟ وإن كان من أخل بتطبيق الناموس ينال عقاب لا رحمة فيه، فأيّ عقاب إذًا ينبغي أن يتوقّعه ذاك الذي يمزّق القداسة نفسها تمامًا؟ لقد قيل: **«من أعثر أحد هؤلاء الصغار فخير له أن يعلّق في عنقه حجر الرَّحي ويُغرق في لجة البحر»** (مت١٨: ٦)، فماذا نقول إذًا عن أولئك الذين بأقوالهم لا يعثّرون أحد هؤلاء الصغار

وحسب بل وكثيرين أيضًا؟ فإذا ما كان وصف الأخ بالأحمق يستوجب نار جهنّم (مت٥:٢٢)، فأيّ غضب سيحلّ بذاك الذي يذمّ هذا المنهج الحياتيّ المعادل لنهج الملائكة؟

٤ – لقد تكلّمَت مريم يومًا ما ضد موسى (**عد١٢:١**)، لا كما تفعلون أنتم اليوم ضد البتوليّة، بل أن كلماتَها كانت أقل حدّة وأشدّ اعتدالاً بكثير، فقد كانت تكنّ لموسى إعجابًا بالغًا، بعيدًا عن الاستهزاء والسخرية بهذا الطوباويّ. لكنها قالت له فقط إنَّها تتمتّع بذات امتيازاته عينها، ومع ذلك جلبت على نفسها غضب الله حتى أن الصلوات الحارّة نفسها من المُساء إليه (موسى) لم تستطع شيئًا لأجلها، لا بل طال عقابُها أكثر مّما كان يتوقّع.

٢٢- هلاك الصبيان أيام أليشع كان درسًا نافعًا.

١ – ولماذا الكلام عن مريم؟ إن أولئك الصبيان الذين كانوا يلعبون على مشارف بيت إيل، لمجرّد قولهم لإليشع: «اِصعد يا أقرع»، قد استثاروا غضب الله حتى أنه أطلق دبّتين على جماعتهم إذ كانوا يتكلّمون بعد، فافترستاهم جميعًا إلى آخر واحد منهم، وكانوا اثنين وأربعين ولدًا، فلم يشفع لهؤلاء الأَحداث، لا صغر سنهم ولا عددهم ولا كونَهم يمزحون بل نالوا العقوبة التي يستحقونَها. فإن كان من وُكل إليهم القيام بأعمال عظيمة كهذه قد صاروا هدفًا لسخرية الأولاد والبالغين، فمن سيختار– وهو أقل نبلاً– أن يقوم بأعمال تُقابَل بالضحك والسخرية؟ من تُراه يتحمّس لبلوغ الفضيلة إن رآها تجلب عليه السخرية؟

٢- ها نحن نرى اليوم العالم أجمع يُعجب بالبتوليّة، ليس فقط ممّن يمارسونَها وحسب، بل حتى عند من سقطوا[١]عنها، فإذا ما تردّد الكثيرون وتراجعوا أمام تفكيرهم بِهذه الجهود المُضنية التي تتطلّبها، فمن سيرضى إذاً باعتناقها دون تعب إذا ما صارت البتوليّة معرَّضة لافتراءات جميع الناس بدلاً من أن تكون محطّ إعجابَهم؟

فالأقوياء الذين عاينوا السماء ليسوا بحاجة إلى تشجيع الأكثرين، بل يكفيهم مديح الله كتشجيع لهم، أمَّا الضعفاء منهم الذين دخلوا هذه الحياة فيجدون في الرأي العام مُعينًا قويًّا لهم.

٣- وليس هذا من أجل هؤلاء الضعفاء وحسب، بل أيضًا من أجل الشاخصين إلى البتوليّة، لكي لا يسترسلوا أكثر في سيّئاتَهم. ولكن، إذ أنطق بهذه الأقوال أتذكر أيضًا قصة إيليا، إن المصير الذي ناله الصبيان لأجل أَليشع قد أصاب أيضًا بنار من السماء فريقين من خمسين رجلاً لكل منهما مع قائديهما. هؤلاء الذين جاءوا بكثير من الوقاحة لإستجواب إيليا آمرين إيّاه بالنــزول إليهم، إلاّ أنّ نار السماء انقضّت عليهم فالتهمتهم جميعًا كما فعلت الدبّتين بالصبيان (**انظر ٢مل١:٩-١٢**).

٤- تأمّلوا هذا يا جميع المُعادين للبتوليّة واجعلوا بابًا وحاجزًا على أفواهكم (**انظر مز١٠٤:٣**)، لئلا تنظروا في يوم الدينونة أولئك الذين سمت بهم البتوليّة متلألئين، وتقولون: «هؤلاء هم الذين احتقرناهم حينًا وأهنّاهم، وكم كنّا حمقى حين حسبنا حياتَهم جنونًا وآخرتَهم بلا كرامة. فكيف يُحسبون من أبناء الله ونصيبهم بين القديسين؟ إذاً، فنحن الذين

---

(١) قد يكون المقصود هنا هو ثيودور الذي أرسل له القديس ذهبّي الفهم رسالتين بعد سقوطه.

ضللنا بعيدًا عن طريق الحق ونور البرّ لم يُضىء لنا (انظُر حك٥: ٤و٦)». ولكن بماذا تُفيد هذه الكلمات طالما أن وقت التوبة قد ذهب، وما جدوى الندم الآن؟

٢٣- لماذا لا تجلب نفس الأخطاء نفس العقوبات.

رُبّ قائل منكم يقول: «ألم يوجّه أحد الشتائم إلى قدّيسون إذًا بعد تلك الأزمنة؟»- نعم، كثيرون فعلوا ذلك وفي مواضع عديدة من الأرض- «لماذا إذًا لم ينالوا العقاب ذاته؟»- لقد نالوه ونحن نعرف الكثيرين منهم، وإذا كان البعض منهم أفلت إلا أنّهم لن ينجوا إلى النهاية، تمامًا كما قال الطوباويّ بولس: **«خطايا بعض الناس واضحة تتقدَّم إلى القضاء، وأمَّا البعض فتتبعهم»** (**١تي٥: ٢٤**). فكما أن المشرّعين قد حدّدوا العقوبات كتابةً بحقّ المذنبين، هكذا ربنا يسوع المسيح، في معاقبته لخاطئ أو خاطئين، إنّما ينقش عذاباتهم إذا جاز القول كما بحروف على نصب نحاسي[1]، وذلك ليتوجّه إلى الجميع مُتخذًا مما أصابَهم مَثلاً يُضرَب، فيقول بأنه حتى ولو أفلت المذنبون في هذا الدهر من العقاب، فسيكون عقابَهم أشدّ صرامة في الدهر الآتي.

٢٤- في أن الخطاة وإن لبثوا غير مُعاقَبين، فلا يجب أن يكون هذا مدعاة للأمان، بل بالأحرى أن يخشوا من ذلك.

١ - فحتى ولو لم ينالنا أيّ عقاب أو ضرّر من جراء الخطايا الجسيمة، فلا يجب أن يكون ذلك مدعاة للأمان، بل بالأحري باعثًا على الخوف،

---

(١) إشارة إلى القوانين التي كانت تُكتب على أنصاب في قديم الزمان.

لأنه إن لم يدنّا الله هنا، فلسوف نُدان هناك مع العالم. وهنا أيضًا، لست أنا من يؤكد ذلك، بل المسيح المتكلّم على فم الرسول بولس الذي توجّه إلى من يتقدّمون للأسرّار المقدسة بدون استحقاق قائلاً: **«من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى، وكثيرون يرقُدون. لأننا لو كنا حَكَمنا على أنفسنا لما حُكم علينا، ولكن إذ قد حُكم علينا، نؤدّب من الرب لكي لا نُدان مع العالم»** (**١كو١١: ٣٠-٣٢**).

هناك من ليسوا بحاجة إلى عقوبة إلاّ ها هنا على الأرض، حيث أن خطاياهم ضمن حدود معينة، ولا يُعاودون السقوط في زلاّتهم الأولى بعد العقاب، على شبه الكلب الذي يعود إلى قيئه (**٢بط٢: ٢٢**)، ولكن، هناك أيضًا من يتجاوز شرُّهم هذا الحدَّ فيُعاقبون في هذا الدهر وفي الدهر الآتي، وآخرون لا ينالون العقاب إلاّ هناك، وذلك لأنّهم اقترفوا أفظع الزلاّت فلا يُحسبون أهلاً لأن يُصابون مع بقيّة البشر. فلقد قيل: **«ومع البشر لا يُصابون»** (**مز٧٣: ٥**)، إذ هم محفوظون لمشاركة الشياطين في عقابهم: **«اذهبوا عني- يقول الرب- إلى النار الأبدية المُعدَّة لإبليس وملائكته»** (**مت٨: ١٢، ٢٥: ٤١**).

٢- كثيرون نالوا الكهنوت بالمال دون أن يوبخهم أحد ودون أن يسمعوا ما سمعه سيمون الساحر من الرسول بطرس (**أع٨: ٢٠**)، إلاّ أنّهم لن يفلّتوا من العقاب، بل على العكس من ذلك سينالوا عقابًا أشدّ قسوة من ذاك الذي كانوا يستحقّونه في هذا العالم، إذ أنّهم لم يتّعظوا من هذا المِثال.

كثيرون شابَهوا قورح في وقاحته (**عد١٦: ١**)، ولكنهم لم ينالوا مصيره

وإن كان سينالونه فيما بعد فيكون جزاءهم أقسى. كثيرون اقتدوا بإثم فرعون (**خر٥:٢**) ولم يُغرَّقوا مثله، بيد أن محيط جهنّم ينتظرهم. وكذلك أولئك الذين يصفون إخوتَهم بالحمقى لم يُعاقبوا هنا بعدُ، إذ أن العقاب محفوظ لهم هناك.

٣- لا تظنوا أن أحكام الله مجرد كلمات، فقد جرى بعضها، كما حدث مثلاً مع سفيرة ورجلها (أع**٥:١-١١**)، ومع عخان بن كرمي (**يش٧**)، ومع هرون (**عد١٢**)، ومع كثيرين سواهم. هذا كلّه لكي يؤمن بكلامه من كانوا غير مؤمنين، ويكفّون عن خداع ذواتهم في تصوّرهم بأنّهم سينجون من العقاب، ولكي يعلَموا أيضًا بأن صلاح الله إنما يقوم بإمهال الخطاة، وليس المُصرّين على ارتكاب الخطية.

٤- بالطبع، يمكننا الإشارة طويلاً بعدُ إلى تلك النار التي أُعدّت لمحِتقرى جمال البتوليّة، لكن ما قلته فيه الكفاية بالنسبة إلى العاقلين، أمَّا رافضى الإصلاح والحمقى فحتّى ولو كانت الأحاديث أطول لما استطاعت أن تحوّلهم عن جنونَهم. وعلى هذا فسنتوقّف في كلامنا عند هذا الحدّ، ولنتوجّه من الآن فصاعدًا إلى العاقلين دون سواهم، مردّدين مرّة أخرى عبارة الطوباويّ بولس **«أمَّا من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها: فحسن للرجل أن لا يمسَّ امرأة»**. فلْيخجلِ الآن معًا كل الذين يزدرون بالزواج والذين يُشيدون به أكثر مما يستحق، لأنه أسكت كِلا الفريقين بِهذا الكلام وبما سيتبعه أيضًا.

٢٥- الزواج ضروريّ للضعفاء.

حسن هو الزواج لأنه يحفظ عفّة الإنسان مانعًا إيّاه من الإنزلاق إلى

لّجة الزنا والهلاك فيها، فلا يجب أن ينال منه أحد بالسوء لعِظَم منفعته، وذلك لأنه لا يَدَع أعضاء المسيح تصير أعضاء زانية (**١كو٦:١٥**)، ولا يسمح بأن يدنَّس الهيكل المقدّس. إن الزواج حسن لأنه يسند ذاك الذي على وشك السقوط مُنهضًا إيّاه، ولكن، ما جدواه لمن هو قائم وليس بحاجة إلى معونته؟ في مثل هذه الحالة، لا يكون بعدُ نافعًا وضروريًا، بل على العكس من ذلك يكون ضِيقًا لأجل الفضيلة، لأنّه لا يُنشئ عقباتٍ عدّة وحسب، بل ولأنه يحجب عنها أيضًا المديح الذى تستحقّه.

٢٦- من هو قادر على حفظ البتوليّة ويتزوّج، يؤذي نفسه.

أن يدجَّج أحدهم بالسلاح وهو قادر على النضال والنصر بلا سلاح، هذا ليس فيه عدم المنفعة له وحسب، بل ويسبِّب له أيضًا أشدّ الضرّر، ويسلّبه الإعجاب والأكاليل المتلآلئة التي كان يستحقّها، إذ أنه لم يسمح لقوّته أن تظهر بكاملها، مّما يُفقده غلبتَه ومن ثمّ بَهاء إشراقها. أمَّا في حالة الزواج فالخسارة أكبر من ذلك، لكونه لا يسلّب المرء التمجيد من الكثيرين وحسب، بل ويسلّبه أيضًا المكافآت المحفوظة للمتبتِّل.

لذلك قيل: «إنه حسن للرجل ألاّ يمسَّ امرأة» فلماذا إذًا سُمح له بذلك؟ **«ولكن، لسبب الزنا، ليكن لكل واحد امرأته»** (**١كو٧:٢**). يقول الرسول: «إني لا أجرؤ على رفعك إلى سموّ البتوليّة لئلاّ تسقط في لجّة الزنا، إذ أن أجنحتك ليس مهيَّأة بعدُ حتى لأعلو بك نحو هذه القمة العالية». ولكنهم على الرغم من ذلك اختاروا المجازفة في المباراة واندفعوا نحو جعالات البتوليّة، فلماذا إذًا مخاوفك وارتعادك أيها الطوباويّ بولس؟ فيجيب بلا ريب قائلاً: «لأن هؤلاء القوم الملتهبين بِهذه الحماسة إنما

يجهلون ما هى البتوليّة، لكن الخبرة والممارسة اللتان اكتسبتهما في هذه المعركة جعلتاني أكثر حذرًا عند نُصح الآخرين بِها».

٢٧- البتوليّة خير عظيم ومنبع للخيرات العظمى.

١ - أني أعرف صعوبة هذا المشروع، وأعرف مشقّة هذه الصراعات، وأعرف عبء هذه الحرب التي تحتاج إلى نفس مناضلة ذات غَيرَة تجاهد ضد الأهواء إلى أقصى حدّ، إذ ينبغي السَّير فيها على جمر دون احتراق (أم٦:٢٨)، والتقدّم على أسنة السيوف دون انجراح. لأن قوّة الشهوة تماثل في الواقع تلك التي للنار والفولاذ، وإذا لم تتدَّرب النفس حتى تظل فوق الأهواء فلن يتأخر سقوطها في الهلاك. لذا يلزمنا قلب من الماس، وعين يقظة على الدوام، وصبر في كلّ التجارب، وحصون قوية، وأسوار خارجية مع مزاليج، وحرّاس ساهرون شجعان، وقبل هذا كلّه تدّخل ومعونة من فوق، لأنه **«إن لم يحفظ الرب المدينة، فباطلاً يسهر الحراس»** (مز١٢٧:١).

٢ - كيف ننال مثل هذا التدخّل والمعونة؟ عندما نقدّم من جهتنا كل ما هو متوقفًا علينا: الأفكار النقيّة، المثابرة في الصوم والسهر، التدقيق في حفظ الناموس، احترام الوصايا، وقبل كلّ شيء عدم الثقة بنفوسنا (البرِّ الذاتي). وإذا ما حدث أن قمنا بالعظائم، فلنردّد في ذواتنا هذا القول دائمًا: **«إن لم يبني الرب البيت فباطلاً يتعب البنّاؤون»** (مز١٢٧:١). ذلك لأن **«مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشرِّ الروحية في السماويّات»** (أف٦:١٢) وبالتالي يجب علينا أن تكون أفكارنا يقظة ليلاً ونَهارًا لطرد تلك الأهواء

الوقحة، لأن الشيطان هناك بالمرصاد حامل النار بيديه لإحراق هيكل الله (داخلنا). إذًا ينبغي علينا أن نكون محصَّنين من كل جهة لأننا في صراع مع مقتضيات الطبيعة، فالحياة الملائكية هي هدف سعينا والمعركة إنّما نخوضها إلى جانب القوات غير المتجسدة، ونحن «التراب والرماد» نتوق إلى التشبه بأولئك السمائيين.

٣- قل لي، هل يجرؤ أحدهم من بعدُ على مقارنة ملذّات الزواج بمثل هذه حياة؟ ألا يكون ذلك منتهى الغباء؟ لكن إذ كان الرسول بولس مُدركًا كل هذا قال: «ليكن لكل واحد امرأته». لذلك كان يتجنّب الحديث معهم مباشرة عن البتوليّة، بل راح يجتهد بعض الوقت في التحدّث عن الزواج- بقصد تحويلهم عنه شيئًا فشيئًا- وبعد أن خصّص بضع كلمات موجزة للبتوليّة عاد مجدّدًا في استطراده المطوّل للزواج، إذ كان يريد أن يتجنّب تكدير الآذان بصراحة نصائحه وتوجيهاته. فالخطيب الذي يحتوى حديثه كلّه أفكار صارمة من البداية إلى النهاية إنما يكدّر سامعه، لا بل كثيرًا ما يُرغِم النفس على التمرّد، إذ تعود غير قادرة على تحمّل قسوة كلامه.

أمَّا الذي يقدم التنوع في أقواله بحيث يكون السهل منها أكثر مما يكدّر، فهذا يزيل ثقل كلامه عن سامعه، إذ يريح ذهنه ويستميله إليه بأكثر سهولة، وهذا بالضبط ما فعله الطوباويّ بولس.

٤- فهو يقول أولاً: «حسن للرجل ألاّ يمسَّ امرأة»، ثم ينتقل لساعته إلى مسألة الزواج فيقول: «ليكن لكل واحد امرأته». إذًا، هو يكتفي بالقول عن البتوليّة إنَّها مطوبة إذ يقول: «حسن للرجل ألاّ يمسَّ امرأة»، أمَّا الزواج

فينصح ويأمر به لأجل علّة يُضيفها، ألاّ وهي «من أجل الزنا» كما يقول، وهكذا برّر سماحه للزواج. في الحقيقة أن الأسباب التي قدّمها بشأن الزواج إنّما تحمل الإعلاء من شأن البتوليّة، وإن كان لم يكشف عن ذلك بعبارات واضحة بل ترك ذلك لوعى سامعيه، ومن أدرك منهم أنه يحثّ على الزواج، فهذا ليس لأن الزواج هو كمال الفضيلة، بل إن الرسول يأخذ عليه قدْرًا من الشهوة، بحيث يكون الزواج بناءً على كلامه هو وحده القادر على تحريره من هذه الشهوة، وبالتالى سيرتبك خجلاً فيبذل قصارى جهده لإعتناق البتوليّة في أسرع وقت لكى يُبعد عن نفسه مثل هذه السمعة.

٢٨- ما يقوله الرسول بولس عن الزواج إنما هو حثٌّ على البتوليّة.

١- ماذا يقول بعد ذلك؟ **«ليُوفِ الرجل المرأة حقها الواجب، وكذلك المرأة أيضًا الرجل»** (١كو٧:٣). ثم يوضح الفكرة بأكثر وضوح. فيتابع قائلاً: **«ليس للمرأة تسلّط على جسدها، بل للرجل. وكذلك الرجل أيضًا ليس له تسلّط على جسده، بل للمرأة»** (١كو٧:٤).

كلّ هذا الكلام يبدو وكأنه قيل لصالح الزواج، أمَّا الحقيقة فهي أن الرسول بولس قد نفذ بكلماته إلى آذان تلاميذه كما يكون الطعم في الصنّارة، قاصدًا أن يحوّلهم عن الزواج بذات الأقوال عينها التي تكلّم بِها عن الزواج. فمن يعرف أنه لن يعود سيّد نفسه بعد الزواج بل رهنًا لتقدير امرأته، هذا سيجتهد في التحرّر سريعًا من هذه العبوديّة المرّة، أو بالأحرى في عدم الخضوع لهذا النير أصلاً، لأنه في حال ارتباطه سيتوجّب عليه أن

يكون عبدًا يُرضي امرأته طوال الزمن.

٢- إن ما أقوله هنا ليس مجرّد تخمين لفكرة الرسول بولس، إذ يسهل علينا فهمها من خلال التلاميذ . فهؤلاء أيضًا ما كانوا يعتبرون الزواج عبئًا ثقيلاً في أوّل الأمر، إلى أن سمعوا المعلّم يُملي عليهم ما قد أملاه الطوباويّ بولس من ثمّ على الكورنثيين. لأن عبارة: **«من يطلّق امرأته- إلاّ لعلة الزنا- يجعلها تزني»** (**مت٥: ٣٢**)، وعبارة: «الرجل ليس له تسلّط على جسده»، هي تعبّر عن الفكرة عينها في ألفاظ مختلفة.

٣- فإذا ما دقّقنا النظر في قول الرسول نجد أنه يُبالغ في استبداد الزواج ويجعل العبودية فيه أثقل من أن تُحتَمل. فالرب لم يسمح للرجل بأن يطرد امرأته من البيت (الطلاق)، والرسول هنا يرفعه إلى دائرة التسلّط على جسده الخاص، مُعطيًا المرأة كامل السلطة عليه، فصار بذلك إلى ما دون مستوى العبد المُشترى. لأن العبد يستطيع أن ينال حرّيتَه الكاملة، إذا ما استطاع يومًا أن يدبر المال ليدفع فديته لسيّده، بينما الزوج يكون مُرغَمًا على تحمّل عبوديته، دون أن يتمكّن من إيجاد أيّ وسيلة للتحرّر والانعتاق من هذا التسلّط الذي يعانيه، حتى ولو كانت زوجته هي الأشد شراسة.

٢٩- «لا يسلُب أحدكم الآخر» إنما هي حثّ على البتوليّة.

١- بعد أن قال: «ليس للمرأة تسلّط على جسدها»، أضاف قائلاً: **«لا يسلُب أحدكم الآخر، إلاّ أن يكون على موافقة، إلى حين لكي تتفرّغوا للصوم والصلاة، ثم تجتمعوا أيضًا معًا»** (١كو٧: ٥). أظن أن كثيرين ممّن

سلكوا البتوليّة سيخجلون متضايقين إزاء هذا التساهل الكبير من الرسول بولس.

قد يبدو للوهلة الأولى وكأن هذا الكلام لصالح المتزوّجين، لكن الفحص الدقيق يشير إلى أن العبارة على نفس النهج السابق عينه، لأنه إذا أُخذت هذه الكلمات من سياقها تكون مناسبة خَطّابة[1] وليس رسولاً، ولكن من يريد حقًا إبراز معنى المقطع بكامله فسوف يتّضح له بأن هذا الحثّ موافق للكرامة الرسولية.

لماذا يعود الرسول بولس مرارًا إلى هذا الموضوع؟ ألم تكن الكلمات السابقة كافية وهو يشير إلى فكرته بكثير من الوقار متوقفًا في حثّه عند هذا الحدّ؟ ما الذي أضافه هذا القول: «ليوف الرجل امرأته حقها الواجب»، أو أيضًا «ليس للرجل تسلّط على جسده؟» ما الجديد الذي أضافه هذا القول: «لا يسلُب أحدكم الآخر إلاّ أن يكون على موافقة إلى حين؟» لا شيء بالتأكيد، لكن ما قيل هناك بإيجاز وغموض يشرحه هنا بأكثر تفصيل.

٢- إنه في تصرّفه هذا إنما يقتدى بقديس الله صموئيل النبي (**١صم١٠:٢٥**)، والذي حين عَرَض قضاء الملكية أمام الشعب بكلّ أمانة، كان ليس من أجل أن يقبلوها بل لكى يرفضوها، لقد كان المقصود تعلّيمًا لهم في الظاهر، ولكنه كان في الواقع وسيلة لتحويلهم عن رغبتهم غير المناسبة. هكذا الرسول بتكرار الكلام أيضًا عن استبداد الزواج، بمنتهى الوضوح، قاصدًا في نفسه أن يهرب سامعى أقواله من هذا الاستبداد. فعندما قال: «ليس للمرأة تسلّط على جسدها»، أضاف قائلاً: «لا يسلُب

(١) الخاطبة بالتعبير الدارج. (المترجم)

أحدكم الآخر إلاّ أن يكون بموافقة لكي تتفرَّغوا للصوم والصلاة». ألاّ ترى كيف يجتذب العائشين في الزواج إلى ممارسة البتوليّة بلا علمٍ منهم وبلا إلحاح عليهم؟ في البداية أبدى مجّرد مديح للبتوليّة إذ قال: «حسن للرجل ألاّ يمسَّ امرأة»، أمَّا هنا فيضيف التشجيع إلى المديح فيقول: «لا يسلُب أحدكم الآخر إلاّ أن يكون بموافقة».

٣- لماذا أيضًا أخذت كلماته صيغة الحثّ وليس الأمر؟ إذ أنه لم يقل: «فلْيَمنع أحدكم الآخر عن ذاته- عن موافقة- لأجل التفرّغ للصوم والصلاة»، بل قال «لا يسلُب أحدكم الآخر إلاَّ أن يكون على موافقة». ذلك لأن هذا الأسلوب في التعبير أخفّ ثقلاً، فهي تكشف جيّدًا عن فكر المعلّم (الرب) الذي لم يطالبِ بشدّة بهذا المسلك، لاسيّما وأن تطبيق هذه المشورة يتطلّب هبة من الروح. كما وأنه بهذه الطريقة لا يشجّع فقط سامعيه، بل أيضًا يتكلّم بإيجاز عما هو صارمًا، حتى لا يجعل سامعه- يتكدّر منه- بل قبل أن يفعل ذلك يعود إلى الموضوع المحببّ لديه فيركّز عليه من ثمّ أكثر فأكثر.

٢- مادام الزواج مُكرَّمًا، فلماذا يحثّ الرسول الصائمين على العفّة.

١- هنا يجدر بنا البحث أيضًا في هذه النقطة: طالما أن **«الزواج مُكرَّمًا والمضجع غير نجس»** (عب١٣: ٤)، لماذا إذًا في وقت الصوم والصلاة لم يسمح بالعلاقة الجسدية؟ ذلك لأنه كان من غير المعقول عند اليهود- وهم الذين كانت الاحتياجات الجسدية مغروسة فيهم، وكانت لديهم الحرّية في اتخاذ زوجتين وإن شاء طردهما أو استبدلهما- أن يهتّموا لهذه المسألة، إذ

كانوا يمتنعون عن هذه العلاقات نفسها إستعدادًا لسماع الكلام الإلهي، وليس فقط ليوم أو يومين بل لأكثر من ذلك (**انظُر خر١٩: ١٥**)، أمَّا نحن الذين نلنا نعمة وأخذنا الروح، والذين متنا ودُفنا مع المسيح (**رو٦: ٤**)، وأُهلنا للتبني الإلهي، وارتفعنا إلى مثل هذه الكرامة العظيمة، مع كل هذا النِعَم، وأيّ نِعَم، لا نكون بذات الغَيرَة والحماسة التي لهؤلاء الأولاد الصغار (اليهود).

٢- وإذا ما هناك اصرّار في السعي إلى معرفة السبب الذي لأجله منع موسى نفسه اليهود عن هذه العلاقات الجسدية، فأقول إنه حتى ولو كان الزواج مُكرّمًا فإن غاية طموح من يمارسه هو تجنّب الدنَس، أمَّا صنع القدّيسين فلا يحدث بفضله غالبًا، بل بالأكثر بفضل البتوليّة. وليس موسى النبي أو الرسول بولس من يقول بذلك فحسب، بل اسمع أيضًا ما يقوله يوئيل: **«قدّسوا صومًا، نادوا باعتكاف...»** (**يؤ٢: ١٥**).

أتريد أن تعرف: أين أوصى النبي بعدم الإقتراب من امرأة؟ اسمعه يقول: **«ليخرج العريس من مخدعه والعروس من حجلتها»** (**يؤ٢: ١٦**). هذه العبارة تذهب أبعد في فحواها أيضًا عما أمر به موسى النبي، فإذا ما توجّب على العريس والعروس مع ما هما فيه من اضطرام الشغف وحيوية الشباب ألاّ يجتمعا في وقت الصوم والصلاة، فكم بالأولى يكون هذا أشد لزومًا للآخرين الذين لا يخضعون لمثل متطلبات الإقتران الجسدي؟

من يرغب في الصلاة كما يجب وفي الصوم، عليه أن يطرح عنه كلّ رغبة أرضية وكل اهتمام، وأن يزهد في كل شيء مُهيئًا نفسه حسنًا للمثول أمام الله. لهذا فإن الصوم حسن، إذ ينـــزع الهموم من النفس

ويدفع عنا الفتور الذي يعترينا ويركّز أفكارنا. وهذا بالضبط ما كان يعنيه الرسول بولس عندما أوصى بالامتناع عن العلاقات الجسدية، مُستخدمًا تعبيرًا ملائمًا تمامًا، فهو لم يقل: «لئلا تتدنّسًا»، بل قال: «لكي تتفرّغوا للصوم والصلاة» وكأنه يقول بأن العلاقة الزوجية ليست سببًا للدنَس، إنما لضياع الوقت.

٣١- في أنّه كان لازمًا لمن يريدون تكرّيس وقتهم للصلاة أن يمتنعوا عن العلاقات الزوجية.

بما أن الشيطان- وعلى الرغم من كلّ الحرص الذي قد نتعهده- إلاّ أنه يبذل كل الجهد حتى ما يعوقنا عن الصلاة، فيسعى إذا ما وجد نفسًا مشتّتة واهنة بَهوى امرأة، لكي يزيغ عيون الفكر في هذا الإتجاه أو ذاك؟ ولذلك، فحتى لا يحدث لنا مثل هذا، وحتى نتجنّب غضب الله وتكون لنا الصلاة العميقة أوصانا الرسول بالامتناع عن العلاقات الجسدية في تلك الأوقات.

٣٢- التهاون في الصلاة لا يجعل الله عطوفًا علينا، بل نكون محلّ غضبه.

١- أولئك الذين يقفون أمام ملوك- ولماذا أقول الملوك؟ بل أمام أقلّ الحكام شأنًا، نرى هؤلاء العبيد يتوسّلون إلى أسيادهم إمّا لالتماس معروف، وإمّا إلى تسكّين غضب عليهم، محوّلون أبصارهم وكلّ أفكارهم نحو هؤلاء الوجهاء، قبل أن يقدموا التماسهم، لأنّهم إن أبدوا أيّ تَهاون لا يعودون خائبين فيما يسألون وحسب، بل ويُطردون أيضًا مع ما يلحق

بِهم من ضرّر إضافي.

فإن كان يجب علينا أن نبدى غَيرَة كهذه عندما نريد أن نسكّن غضب البشر، فماذا سيكون مصيرنا نحن الأشقياء الماثلين بِهذه الرخاوة أمام الله ربّ الكل، في حين أن غضبًا أشدّ قسوة ينتظرنا؟! إذ ما من عبد يستطيع أن يُغضب سيّده، وما من أحد يُغضب الله مثلما نصنع نحن كل يوم.

٢– هذا ما أراد المسيح أن يُفهمنا إيّاه عندما دعا الخطايا نحو القريب دَينًا بمقدار مئة دينار والخطايا تجاه الله دينًا قدره عشرة آلاف وزنة (**انظُر مت١٨: ٢٤-٣٥**).

لذلك كان الرسول على حق حينما دعانا أن ننصرف عن كل هذه المُتع، في الوقت الذي نتوجّه فيه إلى الله بالصلوات لتسكّين غضبه ولمصالحة ذاك الذي نتحدّاه هكذا كل يوم. إنه يقول لنا نوعًا ما: «أيها الأحباء إن الموضوع إنما يتعلّق بنا. ها نحن نخاطر بنفوسنا إلى أقصى حدّ، ولذا يجب علينا أن نرتعد خوفًا وهلعًا. إذ نحن نتوجّه إلى إله مهوب والذي غالبًا ما نوجّه نحوه الإهانة، إن لديه الكثير من اللوم نحونا لأجل خطايانا الجسيمة التي نرتكبها. إذًا، فالوقت ليس وقت تنعم وملذّات، بل هو وقت دموع وتأوهات مُرَّة وتوبة صادقة، هو وقت الاعتراف الأمين والتوسّل الحار والصلاة الدائمة. ولنحسب أنفسنا سعداء إذا ما استطعنا تسكّين هذا الغضب بمثولنا أمام سيّدنا بَغيرَة كهذه، ليس لأنه فظ وقاسى– فهو الوديع في الحقيقة والمحبّ البشر– بل لأن عظم خطايانا لا تتيح له أن يغفر لنا بسهولة وهو الصالح العطوف الكلّي الرحمة».

٣- لهذا السبب يقول الرسول: «لكي تتفرّغوا للصوم والصلاة». أيّ شيء أكثر قسوة من هذه العبودية؟ أنه يقول: أتريد أن تتقدّم على طريق الفضيلة وأن تحلّق نحو السماء، ساعيًا بالأصوام والصلوات المتواترة إلى استئصال الدنَس من نفسك؟ ولكن، ماذا لو أن امرأتك رفضت الموافقة على ما تريده؟ عندئذ تكون مُرغمًا على أن تكون عبدًا لما تشتهيه هي. لذلك قال أولاً: «حسن للرجل ألاّ يمسَّ امرأة»، ولأجل هذا أيضًا عندما سأل التلاميذ الرب قائلين: **«إن كان هذا أمر الرجل مع المرأة، فلا يوافق أن يتزوج!»** (**مت١٩: ١٠**). لقد كانوا يفكّرون بالسيئات التي لا مفرّ منها في كلتا الحالتين، وما حملته هذه الأفكار جعلهم يصوّتون هكذا.

٣٢- تكرار الموضوع ذاته هو اقتداء بالمسيح.

لأجل هذا يعود الرسول بولس باستمرار إلى هذه النقطة من أجل أن يحمل الكورنثيين على هذا التفكير تحديدًا: **«ليكن لكل واحد امرأته،...ليوف الرجل المرأة حقّها الواجب،...ليس للمرأة تسلّط على جسدها...، لا يسلُب أحدكم الآخر،...إلاّ أن يكون على موافقة،...لكي تتفرَّغوا للصوم والصلاة،...ثم تجتمعوا أيضًا معًا»** (**١كو٧: ٢-٥**). ربما لأن سامعي ذلك العصر المطوبين ما كانوا يسمعونه من المرّة الأولى، وعندما يسمعونه ثانية يدركون إلزاميّة هذه الوصية.

عندما كان المسيح على الجبل تكلّم في هذا الموضوع، ثم عاد وتحدّث عنه ثانيةً بعد الكثير من الأمور الأخرى (**مت٥: ٢٨-٣٢، ١٩: ٣-١٢**). وبهذا كان يجتذب سامعيه لمحبة العفّة لما للكلمات المكرَّرة من فعالية. وهنا أيضًا يقتدي التلميذ بالمعلّم فيعود للبحث في الموضوع عينه، وكلّ مرّة كان

يسمح فيها بالزاوج ما كان يكتفى بذلك، بل كان يضيف إليها السبب فيقول: «لأجل الزنا»، «لئلا يجربكم الشيطان»، «لسبب عدم نزاهتكم» (١كو٧: ٢). وبِهذا يمدح البتوليّة دون معرفة منّا في كلامه عن الزواج.

٣٤- في أن البتوليّة تستحق الإعجاب والعديد من الأكاليل.

١- إذا كان الرسول بولس يخشى أن يمنعٍ المتزوجين من العلاقات الزيجية لفترة طويلة حتى لا يجد إبليس مدخلاً إليهم، فكم تكون تلك الأكاليل لأولئك اللواتي لم يكنّ بحاجة منذ البداية إلى هذا التشجيع، واللواتي لبثن غير منهزمات حتى النهاية؟ ومع ذلك فإن إبليس لا يلجأ إلى الحيل ذاتّها بالنسبة إلى الجميع. فالبعض لا يقترب منهم لعلمه دون شك بأن لديهم ملجأ لهم وبأنَّهم قادرون على الالتجاء إلى المرفأ حالما يستشعرون هجومًا عنيفًا. ذلك أن الطوباويّ بولس لا يَدَعهم يُبحرون بعيدًا، بل يحثّهم على العودة حالما يتعبون، داعيًا إيّاهم إلى استئناف حياتَهم المشتركة. أمَّا العذراء فهي مُجبرة دومًا على البقاء في عرض البحر وعلى الابحار في محيط لا ميناء له، دون أن يكون مسموحًا لها حتى ولو هبّت عليها أشدّ العواصف عنفًا أن تلجأ إلى الميناء.

٢- هكذا مثل قراصنة البحر، فهم لا يهاجمون البحّارة حيث تكون هناك مدينة أو ميناء أو مرفأ، فالمجازفة حينئذ تكون خطيرة، لكن إذا اعترضوا السفينة في عرض البحر، فعندئذ تكون نجاة البحّارة عسيرة، فيسلبون كلّ شيء ولا يتوقّفون عندئذ عن قتل البحّارة ما لم يقاسوا هم أنفسهم هذا المصير. هكذا هذا القرصان (الشيطان) يدّخر للعذراء عاصفة هوجاء وإعصارًا وجبالاً من الأمواج التي لا تُقهر، ليقلب كل شيء رأسًا

على عقب ويغرّق السفينة بعنفه وتَهوّره. فهو يعلم بأن العذراء ليست مهّيأة «إلى الاجتماع سويًا» وبأن عليها أن تناضل وأن تقاتل بلا انقطاع أرواح الشرّ، حتى تتمكّن من بلوغ ميناء السلام الحقيقي.

٣- إن العذراء مثل الجندي الشجاع القائم خارج الأسوار. والرسول بولس يرفض حتى أن تُفتح لها الأبواب وأن ثار عليها العدو بشراسة، حتى ولو أصبح أشدّ عنادًا من ذى قبل، ولم يترك لها الفرصة لالتقاط الأنفاس. فليس الشيطان وحده الذي يضايق غير المتزّوجين، بل شوكة الشهوة أيضًا، وهذا بديهى، فالمتع التي نستطيع إشباعها لا نصبح أسَرى لها مباشرة، إذ ينتابنا الشعور بالأمان مما يتيح للنفْس أن تتراخى. وهذا ما يؤكده لنا مَثَل شعبي، ولكنه صحيح تمامًا، يقول: «ما نستطيع فعله لا يحرك فينا رغبة شديدة». ولكن إن انتُزع منّا ما كان في متناوَلنا منذ زمن طويل فعندئذ يحدث العكس، وما كنّا نستخفّ به لأننا نستطيع ممارسته يوقظ فينا من ثمّ رغبة أشدّ عندما تُسلَب منّا متعته.

٤- ذاك كان السبب الأول الذي لأجله ينَعم المتزوّجون بهدوء أكبر، وهوذا السبب الثاني: لو تأججت أحيانًا عاليًا شعلة الرغبة، سرعان ما يأتي الاتحاد الجسدي ليطفيء هذا اللهيب دون تأخير. أمَّا العذراء فليس لها ما تطفئ به هذه النار، بل تراها وهي تمتدّ وترتفع، وإذ لا تقوى على إخمادها تكون حيلتها الوحيدة هي أن تكافح هذه النار دون أن تحترق بها. هل هناك ما هو أكثر عجبًا من أن يحمل المرء في داخله هذه النار الهائلة من دون أن يحترق؟ وأن يرعى هذا اللهب في أعماق نفسه وفي ذات الوقت يحفظ فكره سالمًا؟ ما من أحد يسمح للعذراء أن تطرح هذا الجمر خارجًا،

وهذا ما صرّح به كاتب الأمثال فى أنه شيء لا يُطاق بالنسبة إلى طبيعة الأجساد، ولكنها مُرغَمه على تكّبده في النفس. إذ يقول: **«أويمشى إنسان على الجمر ولا تكتوى رجلاه؟»** (أم٦:٢٨)، حسنًا، هوذا العذراء تدوس وتتحمّل هذه التجربة! **«أياخذ إنسان نارًا في حضنه ولا تحترق ثيابه؟»** (أم٦:٢٧)، ولكنها، لا تحمل النار في ثيابِها، بل في أعماق نفسها، تلك النار المتوهجة ومع ذلك تتحمّل هذا اللهيب وهو فيها.

٥- قلْ لي، هل يجرؤ أحد بعدُ على مقارنة الزواج بالبتوليّة؟ إن الطوباويّ بولس لا يسمح بذلك، بل يشدّد على الفرق الشاسع الذي يفصل بينهما فيقول: **«إن بين الزوجة والعذراء فرقًا: غير المتزوجة تَهتم في ما للرب...وأمَّا المتزوجة فتهتم في ما للعالم»** (١كو٧:٣٤). وعندما يسمح للمتزوّجين بالعودة إلى ما كانا عليه، اسمعْ كيف يبكّتهما من جديد قائلاً: **«ثم تجتمعوا أيضًا معًا لكي لا يجرّبكم الشيطان»** (١كو٧:٥). وهنا كشف أن الموضوع لا يكّمن كلّه في تجربة الشيطان، بل بالأكثر إلى ضعفنا، إذ يقدم هنا السبب الأساسى قائلاً: **«لسبب عدم نزاهتكم»** (١كو٧:٥).

٦- من لا يخجل عند سماعه هذه الكلمات؟ من لا يستخدم كل وسيلة للتخلّص من التوبيخ على عدم العفّة؟ ذلك أن هذا النصح ليس موَّجهًا إلى الكل، بل إلى من يسعوا إلى الأرضيات. إذ يقول: «إذا ما كنت عبدًا للملذّات، وإذ ما كنت ضعيفًا مُنقادًا دومًا للذّة الزواج ومولع بِها، فُعدْ إذًا إلى زوجتك». أنت ترى هنا أن السماح لا يُستحَسن ولا يُمدَح، بل هو جدير بالسخرية والتوبيخ الأكيد، ولو لم يكن لديه العزم الثابت على استهداف نفوس محبيّ اللذّات لما استعمل كلمة «عدم نزاهتكم» المعبرِّة

جدًا والتي تحمل الكثير من التبكيت. لماذا لم يقل: «لأجل ضعفكما»؟ ذلك لأن هذه العبارة إنما تشير إلى الأهمال والتهاون، أمَّا عبارة «عدم نزاهتكم» فتشير إلى قمة الانحطاط الأخلاقي. وهكذا، فمن عدم النــزاهة لا يستطيع المرء تجنّب الزنا إلاّ باللجوء إلى امرأته طوال الوقت وإلى ملذّات الزواج.

٧- بمَ سيجيبون الآن من ينادون بأنْ البتوليّة لا جدوى منها؟ لأنه بقدْر ما يُثابَر عليها بقدْر ما تكون مستحقّة للمديح، أمَّا الزواج فيُستهلَك حتى الشبع، وفي هذا أفضل السبل لتجريده من كلّ مديح. ولكنه يقول: **«ولكن أقول على سبيل الإذن لا على سبيل الأمر»** (**١كو٧:٦**)، وحيث السماح فلا مكان للمديح. وفي حديثه عن العذارى يقول: **«ليس عندي أمر من الرب فيهنّ، ولكنى أُعطى رأيًا»** (**١كو٧:٢٥**)، فهل يعنى بذلك العودة لبحث المسألة من جديد؟ حاشا، لقد أعطى في البتوليّة رأيًا، أمَّا فى تلك سماح «على سبيل الإذن». إنه لا يأمر لا بِهذا ولا ذاك، بل، ولأسباب مختلفة، لا يقوم بذلك هنا حتى لا يكون من يبتغى «عدم النــزاهة» مُرغمًا كأسير للوصية، ولا من كان عاجزًا عن التسامى نحو البتوليّة أن يُدان كمتجاوز للوصية. يقول: «إنّي لا أوصى بالتبتّل، خشية من صعوبة هذا المشروع، كما ولا أوصى أن تكون هناك علاقة متواصلة (جسدية) مع امرأة (الزوجة) لأني لا أريد أن أكون مُشرِّعًا لعدم النــزاهة». قلت «تجتمعوا سويًا» لكي أحولَ دون انحداركم إلى أسفل وليس لكي أكبح غَيرَتكم في الارتفاع.

٨- إذًا، ليس معنى هذا إن رغبة الطوباويّ بولس أن يلتذّ المرء بأمراته في كلّ حين، لأن عدم النــزاهة (العفّة) لدى الضعفاء هو الذي يشرِّع ذلك دون سواه. أتريد أن تعرف غرضه؟ إذًا، اسمع ما يقوله: **«لأني أريد أن**

يكون جميع الناس كما أنا» (**١كو٧:٧**)، عائشين في البتوليّة- إن كنت تريد أن يعيش الجميع في حالة التبتّل، فأنت إذًا تريد ألاّ يتزوج أحد- أبدًا، إنّي لا أمنع أحد يرغب في الزواج كما ولا ألومهم، إنما أُعلن ما أودّ وحسب. فإنّي أريد بحرارة أن يكون الجميع مثلي، بيد أني أسمح بالزواج بسبب الزنا، لأجل ذلك قلت أولاً: «حسن للرجل ألاّ يمسَّ امرأة».

٣٥- في أن الرسول بولس كان مُرغمًا على أن يقدم نفسه كمِثال للبتوليّة.

١ – لماذا يشير الرسول بولس إلى نفسه في هذا الجزء قائلاً: «لأني أريد أن يكون جميع الناس كما أنا»؟ فحتى ولو لم يتابع كلامه قائلاً: **«لكن كل واحد له موهبته الخاصة»** (**١كو٧:٧**)، ما استطاع أحد أن يتّهمه بالإفتخار. لماذا إذًا أضاف: «كما أنا»؟ ليس على سبيل الإفتخار فهذا هو الذي فاق الرسل في أتعاب الكرازة و مع ذلك لم يعتبر نفسه أهلاً أن يُدعى رسولاً. إذ بعد أن قال: **«لأني أصغر الرسل»** (**١كو١٥:٩**)- كما لو كان قال ما يتجاوز استحقاقاته- عاد سريعًا فقال: «أنا لست أهلاً لأن أُدعى رسولا». لماذا إذًا هنا يربط بين مِثَاله وما ينصح به؟ إن هذا لم يكن اعتباطًا كما و لم يكن عن غير قصد، فهو يعلم أن أفضل ما يحثّ به تلاميذه على الخير إنّما هو المِثَال الذي يأخذونه عن معلّمهم. ومن ثمّ فالذي يكتفى بالفلسفة في كلامه، دون أن تؤيّده أعماله، لن يكون عظيم التأثير على سامعيه، أمَّا من استطاع أن يُظهر بحياته ما يقوله، فهذا له نصيب أوفر فى أن يجتذب سامعيه. ومن ناحية أخرى يبدو الرسول بولس، إضافة إلى ذلك، مُجردًا من الغَيرَة والكبرياء، إذ يودّ أن يشاركه تلاميذه في هذا الامتياز الذي يتمتع

به، ولا يسعى إلى أن يكون أعظم منهم، بل يريد أن يكونوا مساويين له في كل شيء.

٢- وهناك أيضًا سبب ثالث أقوله، وهو أن هذه الفضيلة تبدو شاقّة وقلّما تُعجب جميع الناس. وإذ كان يريد الإشارة إلى أنّها ليست عسيرة، قدّم نفسه كمِثال لإنسان يمارسها حتى وإن رآها البعض أنّها أمرًا في غاية الصعوبة، وحتى يتطوّع التلاميذ هم أيضًا واثقين من الطريق بالنظر إلى مرشدهم.

وقد تصرّف أيضًا بنفس الطريقة في مناسبة أخرى: عندما توجّه إلى الغلاطيين ساعيًا إلى إنقاذهم من خوف الناموس، هذا الخوف الذي كان يجتذبَهم إلى عاداتِهم القديمة مجدّدًا في حفظ آلاف الوصايا، ماذا يقول؟ **«كونوا كما أنا، لأني أنا أيضًا كما أنتم»** (**غل٤: ١٢**)، وكأنّي به يقول: أنكم لن تستطيعوا معارضتي، لأنكم قد اهتديتم من بين الوثنيين ولا تعرفوا بعدُ الخوف الذي ينشأ من تعدّى الناموس، ومع ذلك لا تتورّعوا بالفلسفة فى الكلام عن كل مزاعمكم. فيقول: «أنا أيضًا قد عانيت وقتًا ما من هذه العبودية وكنت خاضعًا لأحكام الناموس وحافظًا لوصاياه بكل غَيرَة، ولكن ما أن ظهرت نعمة الله حتى تحوّلت بالكلّية من الشريعة القديمة إلى الجديدة- وهذا ليس بتعدّ البتة، **«فلقد صرنا أتباع رجل آخر»** (**انظُر إر٣: ١**)- ولا يستطيع أحد أن يدّعى بأني أفعل شيئًا وأنصح بشيء آخر، أو أنني أعرِّضكم لخطر ما بعد أن أمنتُ سلامتي منه، فلو كان هناك خطر لما خاطرت بنفسي مجازفًا بخلاصى». وهكذا، إذن كان يقدّم نفسه مِثالاً في هذه الرسالة لكى يحرِّر سامعيه من الخوف، وكذلك هنا يقدِّم نفسه قدوة

حتى يطرد عنهم القلق.

٣٦- الرسول يدعو البتوليّة موهبة تواضعًا منه.

١ – إنه يقول: **«لكن كلّ واحد له موهبته الخاصة من الله الواحد هكذا، والآخر هكذا»** (١كو٧:٧). انظُر كيف أن سِمات التواضع الرسولى لا تغيب في أيّ موضع، بل تتلألأ مشرقة في كَل مكان، فهو يدعو هذا السلوك موهبة إلهية، أمَّا عن ثمر التعب الذي عاناه فيعزوه بالكامل إلى سيّده. هل نندهش إذًا إن تصرَّف على هذا المنوال في موضوع البتوليّة، إذ أنه يتبع الطريقة عينها أيضًا في كلامه عن الكرازة، تلك التي قاسى لأجلها آلاف التجارب والضيقات المتواصلة والآلام غير الموصوفة والميتات اليومية؟ ماذا يقول في هذا الأمر؟ **«أنا تعبت أكثر منهم جميعهم. ولكن لا أنا، بل نعمة الله التي معي»** (١كو١٥: ١٠). إنه لم يقل: هذا عملي وذاك عمل الله، بل الكل هو من عمل الله. إن فضيلة العبد الصالح تكمن في أنه لا يَعتبر شيئًا وكأنه له، بل أن الكل لسيّده، وأن لا يظنّ شيئًا وكأنه له بل الكل للرب.

٢ – هكذا فعل أيضًا في موضع آخر. فبعد أن قال: **«ولكن لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المعطاه لنا»** (رو١٢:٦)، يتابع مُعددًا من هذه المواهب الخدمة وأعمال الرحمة والصدقات، إذ يعتبرها أعمال فاضلة وليست مواهب، وهذا واضح جدًا، وإذا ما ذكرت ذلك فلئلا تخور عزيمتك عندما تسمعه يقول: «الكل واحد موهبته الخاصة»، وتقول من ثمّ لنفسك: «لا حاجة لى أن أبذل أي جهد طالما أن الرسول بولس قد تحدّث عن موهبة إلهية».

في الواقع، إن ما قد دفعه إلى التعبير على هذا النحو هو اتضاعه، وليس رغبة في وضع البتوليّة في عداد المواهب، وذلك لأنه لن يضع نفسه في موقف يتناقض فيه مع المسيح. فالمسيح يقول: «إنه يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات»، ثم أضاف قائلاً: **«من استطاع أن يَقْبل فَلْيَقبل»** (مت١٩: ١٢). والرسول بولس هو نفسه أدان اللواتي فضّلن الترمّل و لم يحفظوه، فلو كانت تلك موهبة إلهية، فلماذا إذًا ينذرهنّ بقوله: **«ولهن دينونة لأنّهنّ رفضن الإيمان»** (١تى٥: ١٢)؟

إن المسيح لم يعاقب أحدًا قطّ، مّمن لم ينالوا مواهب، بل من لم يحيوا بالاستقامة، لأن ما يطلبه هو حياة كاملة وأعمالاً لا عيب فيها. وبما أن توزيع المواهب لا يتوقّف على نيّة المستفيد بل على قرار المُعطى. لأجل هذا لم يمدح المسيح قطّ صانعى العجائب، بل حتى عندما رأى تلاميذه في ذلك مدعاةً للفخر، حوّلهم عن هذا الفرح بقوله: **«لا تفرحوا أن الأرواح تخضع لكم»** (انظُر لو١٠: ٢٠)، لأن المطوبون دومًا هم الرحماء، والمتواضعون، والودعاء، وأنقياء القلب، وصانعى السلام، والذي يُظهرون كافّة هذه الفضائل وسواها مّما يشبهها.

٣- أضف إلى ذلك أن الرسول بولس نفسه لم ينسَ أن يذكر العفّة عندما عدّدها بين فضائله. فبعد أن قال: **«في صبر كثير: في شدائد، في ضرورات، في ضيقات، في ضربات، في سجون، في اضطرابات، في أتعاب، في أسهار، في أصوام»**، أضاف **«في طهارة»** (٢كو٦: ٤و٥)، وما كان يفعل هذا لو كانت هذه موهبة. مثَال آخر، لماذا كان يسخر أيضًا مّمن لم يكن لديهم هذه الفضيلة، واصفًا إيّاهم بعديمى العفّة؟ ولماذا يقول **«الذي لا**

يُزوّج عذراءه يفعل أحسن» (١كو٧:٣٨)؟ ولماذا تكون الأرملة **«أكثر غبطة في الرب إن لبثت هكذا»** (١كو٧:٤٠)؟ ذلك لأن الأعمال وليس المعجزات هي التي تستحق التطويب، كذلك الأمر بالنسبة إلى العقوبات كما سبق وقلت. ولكن، لماذا الاسترسال في هذا النوع من التوجيهات طالما أن الأمر لا يتوقف علينا وأن الله بعد تدّخله ليس بحاجة إلى جهادنا الشخصي؟ لأنه بعد أن قال: **«أُريد أن يكون جميع الناس كما أنا»** (١كو٧:٨). وضع نفسه في المقدّمة لأجل هذا السبب عينه، ألاّ وهو ظنّه بأن سامعيه سيكونون أكثر إقدامًا على مجابَهة أتعاب البتوليّة في تأثّرهم بهذا المَثال القريب منهم، وعندما قال في السابق: «أُريد أن يكون الجميع كما أَنا»، يقول هنا «إنه حسن إذا لبثوا كما أنا»، دون أن يعطى قطّ سببًا لذلك، فلا ينبغي أن نتعجّب، فهو لا يتصرّف أبدًا على سبيل الإفتخار، وإنما يرى دافعًا كافيًا في يقينه يقوده لممارسة هذه الفضيلة.

٣٧- في أن همومًا كثيرة تنشأ في الزواج الثاني.

١- إذا ما كنتم ترغبون في سماع مزيدًا من الأدلة الأخرى، فاسألوا أولاً الناس رأيهم، ثم بعد ذلك من اختبروا هذا الأمر. فما من شك أن المشرّعين لا يدينون مثل هذه الزيجات (الزواج الثانى)، بل يسمحون بِها، وإن كانوا بذلك يحثّون الكثيرين على إبداء الملاحظات الكثيرة، من تَهكّمات واستنكارات واستياءات شديدة، سواء في البيوت أو على رؤوس الأشهاد. فالجميع يُولون ظهورهم لهؤلاء القوم في الواقع كما لحانثين اليمين، حتى أن أحد لا يجرؤ على التودّد إليهم، ولا على التفاوض معهم في شأن ما، ولا على الثقة بِهم ولو قليلاً. وعندما ترونَهم وهم يطرحون

حياتَهم الأولى، ووِّدهم، وعشرتَهم، وشركتهم، تجدون أنفسكم مشلولين نوعًا ما إزاء هذه الأفكار ولا تستطيعون بالتالي الإقتراب منهم بكل إخلاص، لأجل تقلّبهم وعدم ثباتَهم. كما وأنَّهم لا يُستهجَنون لأجل هذا السبب وحسب، بل ولأجل عواقب أفعالهم أيضًا.

٢- قلْ لي، أيَ شيء أكثر حزنًا من رؤية التصفيق والضجيج وإعداد العرس بعد الحزن العميق والتأوّهات والدموع والثياب الداكنة، الأمور المعاكسة تمامًا لما سبق؟ ألاّ تصفهم بالمرائين إذ تشاهدهم وهم على هذا النحو حينًا وعلى ذاك حينًا آخر؟ كالممثّل تراه يقوم بدور ملكًا يومًا وحينًا آخر أحد الصعاليك، هكذا نجد هنا نفس المشهد فمنذ قليل كان غارق في الحزن عند قبر زوجته، فجأة نراه الآن خاطبًا، الذي كان ينتف شعر رأسه من الحزن، ها هو يحمل الأكليل الآن على تلك الرأس عينها، والذي كان خائر العزم كئيبًا باكيًا طوال الوقت أمام الآتين للتعزية، والذي لم يكف عن مدح زوجته الراحلة، مصرّحًا بأن الحياة لم تعد تُحتمل بالنسبة إليه بعد رحيلها ولا يريد أن يتعزى، تراه الآن ووسط حِداده نفسه، يتزّين ويتجمّل مجدّدًا، والعينين اللتين كانتا غارقة في الدموع منذ قليل صارتا تبتسّمان لهؤلاء الأصدقاء أنفسهم، والفم الذي كان يندب حظه منذ قليل صار يوجّه إلى الجميع عبارات الترحيب والمودّة.

٣- لكن الأقسى والذى يثير الشفقة فى ذلك كله، هو تلك المرأة التى تعلن الحرب على أولاده، والتي ستبقى دومًا زوجة أب، إن الخلافات والصراعات اليومية تنشأ من مثل هذه الزيجات، هذا العداء الغريب الشاذ إزاء تلك المرأة الراحلة التي لا تسئ إلى أحد. قد يكون من الطبيعي أن تجد

غَيْرَة بين الأحياء، ولكن الموت يصنع السلام، بينما هنا الأمر ليس كذلك، إذ إن الغَيْرَة تُهاجم التراب والرماد. إنه حقد لا يوصف إزاء تلك التعيسة الجاثمة في القبر، شتائم وسخرية واتّهامات ضد تلك التي تحوّلت إلى تراب، ضغينة شديدة لتلك التي لم ترتكب في حقّها شيئًا. فما من شيء أسوأ من هذا الجنون ومن تلك القساوة؟ لاسيما وأن ليس لديها ما تلوم عليه الراحلة- وماذا أقول، تلوم؟- وهي التي حصدت ثمار أتعابها والتي تستفيد من خيراتها، ومع هذا لا تكفّ عن مصارعة ظلّها! فتلك المسكينة التي لم ترتكب في حقّها شيئًا، بل التي ربما لم تَرَاها البتّة غالبًا، تكيل لها آلاف التهكّمات كلّ يوم وتثأر من تلك الميتة عبر أولادها، وغالبًا ما تحرّض زوجها ضدّهم حين لا تجدى جهودها نفعًا. ومع ذلك، يرى رجالاً كثيرون كلّ هذا وكأنه أمر سهل الاحتمال، لكونّهم لم يتحمّلوا طغيان الشهوة ليس إلاّ.

٤- أمَّا العذراء فلا تعانى من أيّ إغراء إزاء هذا الصراع، كما ولا تتجنّب هذا الصدام الذي يبدو غير مُحتمَل عند الكثيرين، بل تقاوم بشجاعة وترضى بالمعركة التي ألزمتها بها الطبيعة. كيف يُستطاع إذًا الإعجاب بها بحسب ما تستحق؟ بينما الآخَرون محتاجين إلى الزواج ثانيًة لعدم اكتفائهم، تبقى هى مقدّسة من دون أن تعرف زواجًا واحدًا حتى. ولأجل هذا السبب، بل ولأجل المكافآت المحفوظة للترمّل في السماوات أيضًا، تكلّم ذاك الذي يحمل المسيح في أعماقه فقال: **«ولكني أقول لغير المتزوّجين والأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا»** (**١كو٧:٨**). فإن لم تكن قادرًا على الإرتقاء إلى القمّة العليا، إذن، فلا تسقط على الأقل من القمة التي قبلها (أي البتوليّة ثم الترمّل)، فالعذراء لا تفوقك إلاّ بميزة واحدة، ألاّ

وهي أن الشهوة لم تصرعها، ولا مرّة، في حين أنَها هزمتك أنتِ أولاً، دون أن تقوى مع ذلك الاحتفاظ بك دومًا. فأنت قد حُزت النصر بعد هزيمة واحدة، أمَّا انتصارها هي فبرئ من كل هزيمة، وإذ كلاكما تُصيبان الهدف معًا تكون هي قد فاقتك في البداية فقط.

٣٨- في أنه لماذا كان الرسول يراعى المتزوّجين كثيرًا ولم يفعل ذلك لآلام العذراء؟

١ - ولكن لماذا؟ يراعى الرسول بولس المتزوّجون فيقول: لا امتناع بدون اتفاق متبادل، وإن كان لا يجب أن يطول، بل إنه يسمح أيضًا بالزواج مرّة ثانية لمن يرغبونه [بعد الترمّل] **«لئلا يتحرُّقوا»** (**١كو٧: ٩**)، أمَّا نحو العذارى فلا يُبدى مراعاة من هذا النوع. فالأزواج أعطاهم حرّية كاملة ليعودوا إلى ما كانوا عليه بعد فترة انقطاع قصيرة، أمَّا العذراء فليس لها ولو للحظة أن تلتقط أنفاسها، بل يَدَعها تقاتل بلا هوادة، يمطرها العدو بسهام الشهوة، ولا يسمح لها ولو بهدنة لفترة قصيرة. لماذا لم يقل لها هي أيضًا: «إن لم يضبطوا أنفسهم فليتزوّجوا؟» ذلك لأنه من غير الممكن القول للمصارع بعد أن نزع ثيابه ودّهن جسده بالزيت ونزل للحلبة: «انسحبْ واهرب من أمام خصمك». فهو من الآن فصاعدًا أمام أحد أمرين، إما أن يترك الحلبة وهو مكلّلاً بإكليل الانتصار، وإمّا يند ومًا وقد غطّى الخزي وجهه.

المصارع أثناء التدريب يكون حرًّا في أن يتعب أو أن لا يتعب، حيث يكون التدريب مع أهل البيت وحيث يتبارى مع الأصدقاء كخصوم. ولكن، عندما يسجَّل اسمه على اللائحة، وتمتلئ الحلبة بالمشاهدين، ويحضر

رئيس اللجنة، ويجلس المتفرّجون، ويدخل الخصم لمواجهته، عندئذ قانون المسابقة لا يترك له الأختيار.

٢- هكذا الأمر بالنسبة إلى العذراء، طالما أنّها لازالت تفكر إذا ما كانت ترغب في الزواج أم لا، فالزواج لا يمثلّ أيّ خطرًا عليها، لكن متى اختارت وسجلت اسمها على اللائحة ودخلت إلى الميدان، فمن ذا الذى سيجرؤ عندئذ- حين يكون المحفل مليء بالناس، والملائكة ناظرين من فوق، والمسيح رئيس الحلبة، وحيث الشيطان يستشيط غيظًا، مصارعًا إيّاها ومُمسكًا بِها من الوسط- أن يتقدّم إليها ويقول: «اهربي من أمام غريمك، كُفّى عن تلك المشقّات، انطلقى ولا تقلقى، لا تطرحى خصمك أرضًا بل تخلى له عن النصر»؟

٣- هل أقول هذا للعذراء؟ بل حتى الأرامل أنفسهن لا يتجاسّر أحد على مخاطبتهّن بِهذا الكلام، بل بالأحرى بذلك القول الرهيب: **«إنّهن متى بَطرن على المسيح، يُردن أن يتزوّجن، ولهن دينونة لأنّهنّ رفضن الإيمان الأول»** (١تى٥: ١١و١٢). ومع ذلك، يقول لهن الرسول: **«أقول لغير المتزوّجين وللأرامل، إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا. ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم، فليتزوّجوا»** (١كو٧: ٨و٩)، وأيضًا: **«ولكن إن مات رجلها، فهي حرّة لكي تتزوج بمن تريد، في الرب فقط»** (١كو٧: ٣٩).

٣٩- لمن من الأرامل والعذارى يسمح الرسول بولس بالزواج.

١- كيف يمكنه أن يعاقب امرأة «حرّة»، وأن يعتبر زواجًا قال هو نفسه عنه «في الرب» مخالفًا للناموس؟ لا تقلق، إنه هنا يتكلّم عن زواج آخر. فعندما يقول مثلاً: **«إن تزوّجت العذراء، لم تخطىء»** (١كو٧: ٢٨)، لا

يعنى بكلامه هذا تلك التي رفضت الزواج- بل تلك التي لم تعرف بعد زواجًا، والتي لم تختار بعد أي الطريقين تسلك وظلت متردّدة بين هذين الأمرين. وهكذا الحال بالنسبة إلى الأرملة، التي فقدت زوجها و لم تأخذ بعد قرار فيما يتعلّق بوجهة حياتَها، والتي مازالت حرّة في اختيار هذا الطريق أو ذاك، ولكنه هنا يتكلّم عن تلك التي التزمت بالبتوليّة وجهادها، و لم تعد قادرة على الزواج ثانية.

٢- من الممكن أن تكون امرأة أرملة دون أن تكون مستحقّة مع ذلك لصفة الأرملة، عندما لا تقبل أن تستمر كذلك. ومن هنا قول الرسول: **«لتكتتب أرملة، إن لم يكن عمرها أقل من ستين سنة، امرأة رجل واحد»** (**١تى٥:٩**). فهو يسمح لمن ترمّلت أن تتزوّج إن شاءت، أمَّا تلك التي نذرت لله ترمّلها الدائم ثم عادت ونكثت عهدها وتزوجت، فيدينها بشدّة لأنَّها داست العهد الذي أبرمته مع الله. إذًا، لهذا فأن القول: **«إن لم يضبطوا أنفسهم، فليتزوّجوا، لأن التزوّج أصلح من التحرّق»** (**١كو٧:٩**) هو لمن لم تنذر ترمّلها. أترى كيف أن الزواج لا يُمدح لأجل ذاته، بل لسبب الزنا والتجارب وعدم العفّة؟ فلقد استعمل سابقًا كافّة هذه العبارات، ولكنه هنا يلجأ إلى تعابير مستترة للإشارة إلى الموضوع عينه من جديد، مسمّيًا إيّاه احتراقًا وتحرُّقًا هذه المرة، لكونه وجّه بشأنه توبيخات شديدة.

٣- أضف إلى ذلك أنه لا يتورّع عن صدْم سامعيه في هذا الجزء أيضًا، فهو لا يقول: إن أكرهتهم الشهوة، إن انساقوا، إن لم يستطيعوا، بل ولا شيء من هذا القبيل، فالمكرَه على أمر ما، يستحقّ التساهل. ولكن ماذا يقول؟ «إن لم يضبطوا أنفسهم»، وهذا ينطبق على من يسلك برخاوة

ويرفض بذل الجهد، قاصدًا بكلامه هذا أنَّهم يُخفقون لأنَّهم لا يريدون أن يتعبوا، مع أن لديهم كلّ ما يلزم للنجاح. غير أنه لا يعاقبهم لذلك، كما ولا يحكم عليهم بالعذاب، بل يقتصر على حرمانَّهم من المديح، والحدّة التي أبداها لا تتعدّى سوى كلمات الملامة. فالمشكلة لم تكن قطّ في إنجاب البنين- هذا الباعث النبيل على الزواج- بل في التحرّق، وعدم العفّة، والزنا، والتجارب الشيطانيّة، وهو بالتالي لم يقبل الزواج كحلّ إلاّ لتفادي هذه الاضطرابات.

٤- ربما يقول أحد: «وماذا يهمّ؟ طالما أن الزواج ينقذنا من العذاب (حروب الشهوة)، فَلَسوف نتحمّل ونحن مُرتاحو البال جميع العقوبات وجميع الملامات، ويكفينا أن نذعن إلى المُتَع وإشباع شهوتنا كل مرّة!» ما هذا أيها العزيز! إذا ما كانت هذه الملذّات محظورة علينا، أيكون اللوم فقط هو كل ما انتفعنا به؟ فيقول: «ولكن، كيف يمكن لهذه الملذّات أن تكون محظورة طالما أن الرسول يقول: إن لم يضبطوا أنفسهم، فليتزوّجوا؟».

٥- أجل، ولكن اسمع أيضًا بقيّة الكلام. أنت تعلم أن الزواج أصلح من التحرّق، ووافقت على أن هذا شيء حسن لديك، وامتدحت هذا السماح الممنوح لك، وأُعجبت بالرسول لتنازله، حسنًا، لا تتوقّف عند هذا الحدّ، بل اقبل أيضًا ما يلي ذلك من تعليم، فالتعليمين كليهما عائدان له. ماذا يضيف بعد هذه الأقوال؟ **«أمَّا المتزوّجون، فأوصيهم، لا أنا بل الرب، أن لا تفارق المرأة رجلها، وإن فارقته، فلْتلبث غير متزوّجة، أو لتُصالح رجلها. ولا يترك الرجل امرأته»** (١كو٧: ١٠و١١).

٤٠- في أن عبودية الزواج جسيمة ولا مفرّ منها.

١- ولكن ماذا؟ إذ كان الرجل وديعًا، وكانت امرأته مؤذية، نّمامة، ثرثارة، مبذّرة- وهذه مساوىء مشتركة بين النساء العالّميات- هذا عدا الشرور الأخرى، فما الذي سيفعله هذا المسكين عندئذ ليتحمّل يوميًا هذا الطبع الردئ وهذا الزهو وهذه السفاهة؟ وماذا إذا ما كان العكس، فكانت هي متواضعة وديعة، بينما هو فظًا، مزدريًا، غضوبًا، متعجرف القلب مهموم بالثروة أو السلطة، يتعامل مع زوجته وكأنّها أَمَة، كيف ستتحمّل مثل هذا الضغط وهذا العنف؟ أجل، ما الذي سيحدث إن لم يكفّ عن إهمالها وإن لم يتراجع عن هذا المسلك؟ يجيبها الرسول قائلاً: «تحمّلى كل هذه العبودية لأنك لن تكوني حرّة إلاّ بعد موته، أمَّا في حياته فأنت أمام خيارين: إمَّا أن تضعى كل غَيرَتك في تَهذيبه وإصلاحه، وإمّا- وإن كان ذلك مستحيلاً- أن تصمدى ببسالة أمام هذه الجهاد القاسى وهذه المعركة التي لا هوادة فيها».

٢- وإذا ما قال سابقًا: «لا يسلُب أحدكم الآخر، إلاّ أن يكون على موافقة»، فهو الآن يدعو المرأة المنفصلة إلى التعفّف حتى ولو كان ذلك خلاف رغبتها. إذ يقول: «فلْتلبث غير متزوّجة، أو لتصالح رجلها». ألا ترى كيف أنَّها بين نارين؟ إمّا أن تسيطر على عنف الشهوة، وإمّا- في حال إمتناعها عن ذلك- أن تصمت أمام تجبره وتستسلم لرغباته، حتى ولو أوسعها ضربًا وسبًا، ولو ابتغى تعريضها لازدراء الخَدَم أو لأي شيء آخر من هذا القبيل.

٣- لقد ابتكر الرجال طرق شتى لمعاقبة نسائهم! وإن لم تستطع أن تحتمل هذا الوضع، فعليها بالتالي أن تراعى العفّة، وإن كانت عفّة عقيمة، وأقول «عقيمة» لأنَّها فقدت قوامها الأساسى، كونَّها قبلتها لا رغبة في القداسة، بل كرهًا في زوجها. يقول الرسول: «فلتلبث غير متزوجة، أو لتصالح رجلها»، نعم، ولكن، ماذا لو رفضت كل مصالحة؟ يجيب بأن لديك حلا آخر وطريقًا آخر، ألاّ وهو أن تنتظري موته.

٤- وإذ لم يكن مسموحًا للعذراء أن تتزوّج أبدًا، فكذلك الأمر ليس بالنسبة إلى المتزوّجات، إلاّ في حالة انتقال الزوج لأنه إن كان مسموحًا للمرأة أن تفارق زوجها في حياته لتذهب إلى آخر، ثم أن تفارق هذا أيضًا لتذهب إلى آخر، فما نفع الزواج إذًا؟ وكأنما الأزواج يتبادلون الزوجات بلا تمييز وبعمومية مشاع فعلاً؟! كيف تكون لنا مشاعر تجاه شركائنا، إذا ما كنا اليوم هنا، وغدًا هناك؟ أجل، لقد كان الرب على حق عندما دعا هذا السلوك زنا (**انظُر مت١٩: ٩**).

٤١- لماذا صرّح الله لليهود أن يطلّقوا نساءهم

١- لِمَاذا صرّح الله لليهود بالطلاق إذًا؟ بالتأكيد هذا لأجل قساوة قلوبَهم (**مت١٩: ٨**)، وخشية من أن تمتلىء بيوتَهم بدماء الأقرباء. ما هو الأفضل، قلْ لي، أن تُطرد المرأة المكروهة خارجًا أو أن تُذبح في الداخل؟ هذا ما كانوا سيفعلونه، لو لم يكن لديهم الحقّ بطردها. لذلك قيل: **«إن لم تجد نعمة في عينيه...أطلقها من بيته» (تث٢٤: ١)**، ولكن حين يتوجّه بكلامه إلى قوم ودعاء قد حَرّم عليهم الغضب نفسه (**أف٤: ٣١**)، فما الذي يقوله؟ **«إن فارقته فلتلبث غير متزوجة» (١كو٧: ١١)**. هل رأيت

الإلزام، والعبودية التي لا مفرّ منها، والقيد الذى يشدّ أحدهما إلى الآخر؟ أجل، الزواج هو قيد حقًا، لا لأنه يتسبّب بالكثير من الهموم ومن المتاعب اليومية فحسب، بل لأنه يُرغم الزوجين على الخضوع المتبادل الذى قد يكون أكثر مشقّة من كافّة أشكال العبودية.

٢- لقد قيل بأن **«الرجل يسود على المرأة»** (**تك٣: ١٦**)، ولكن ما جدوى هذه السيادة؟ إذا أنه قد صار بالمقابل عبدًا لتلك التي يسود عليها؟ يا له من تبادل غريب عجيب للعبودية! فكما أن العبيد الفارين يكبّلون من قبل أسيادهم واحدًا فواحدًا ثم يوثَقون معًا وتُشدّ أرجلهم بقيد ضيّق لكلّ منهم، فلا يستطيعون من بعدُ السير بحرّية لكونَّهم مرغَمين على السير جنبًا إلى جنب، هكذا نفْسا الزوجين اللذين يتكبّدان- فضلاً عن همومهما الشخصيّة- إرغامًا آخر تفرضه عليهما تلك القيود التي تقيّد أحدهم بالآخر. إذ أنَّها أقسى القيود لأنَّها تنتزع حرّية كل منهما، فهى لا تمنح السلطان لأحدهم حصرًا بل تجعلهما شريكين في التصرّف. أين أولئك هم الآن المستعدّون لتحمّل كلّ العقوبات، من أجل إشباع اللذة؟

٣- لقد تضاءل هذا القدر البسيط من اللذة وسط هذه النـــزاعات المتبادلة من الغضب والأحقاد التي غالبًا ما لا تنتهى، ثمّ إن هذه العبودية تُلزم أحد الشريكين بأن يتحمّل رغمًا عنه سوء الآخر، إنما تكون كفيلة لإزالة كل المتع. ولأجل ذلك، عمد الطوباويّ بولس إلى استخدام كلمات حازمة أولاً ليقمع حدّة الشهوة، إذ قال: «السبب الزنا، لعدم النـــزاهة، التحرّق». ولكنه إذ أدرك أن هذا الأسلوب في التوبيخ ليس له تأثير كبير على الأكثرين، قدّم عندها الحجّة الأكثر فعّالية لردْعهم- تلك الحجّة التي

أرغمت التلاميذ على القول: **«فلا يوافق أن يتزوّج»** (مت١٩ : ١٠)، وهي أنه ليس لأحد من الزوجين سلطان على ذاته (**١كو٧ : ٤**). وهنا، لا يعرض الرسول بولس هذه الفكرة كحثّ أو رأى، بل كأمرٍ ووصيّة مُلزمة. أن نتزوّج أو لا نتزوّج، هذا أمر يتوّقف علينا، أمَّا العبودية التي نتحمّلها كرهًا لا طوعًا، فهذا ما لا نستطيع أن نفعل إزاءه شيئًا.

٤- ولماذا هذا؟ لأننا منذ لحظة اختيارنا لها، عن معرفة مّنا وعن عِلم بالحقوق والواجبات، نكون قد خضعنا لنيرها بملء رضانا.

ثم بعد أن تحدّث عن أولئك الذين يحيون مع زوجات غير مؤمنات، وبعد أن شرح بدقّة كافّة أحكام الزواج، وبعد أن أقحم كلامه بشأن العبيد (**١كو٧ : ٢١**) الذين راح يشدّدهم بحكمة قائلاً لهم بأن العبودية التي يعانونّها لا تُضعف من شأن قدرهم الروحي، وصل أخيرًا إلى كلامه بشأن البتوليّة. وهو ما كان يحمله في قلبه، ويود أن يُسرع في بذر بذاره، ولم يكن في استطاعته الصمت عنه في كلامه عن الزواج ذاته.

٥- لقد زخرف بلمسات رقيقة حثّه على الزواج بلا شك، وهو أسلوب رائع لتهيئة آذان سامعيه، ليمهد الطريق لفكرهم، ويقدم مقدّمة كاملة عن موضوعه. فبعد كلامه عن العبيد- قال: **«قد اشتُريتم بثمن، فلا تصيروا عبيدًا للناس»** (**١كو٧ : ٢٣**)- مُذكرًا إيّانا باحسان الرب علينا، لكى يعدّ الأذهان بهذا الشكل رافعًا إيّاها إلى السماء، ها هو يتطرّق أخيرًا إلى موضوع البتولِّية بهذه الكلمات: **«أمَّا العذارى، فليس عندي أمر من الرب فيهن، ولكنني أُعطى رأيًا كمن رحمة الرب أن يكون أمينًا»** (**١كو٧ : ٢٥**). ومع أنك لا تملك أيضًا وصيّة من الرب بشأن زواج المؤمنين بغير المؤمنين،

تشترع القوانين بكثير من السطة وتكتب إليهم قائلاً: **«أمَّا الباقون فأقول لهم أنا لا الرب، إن كان أخ له امرأة غير مؤمنة، وهي ترتضى أن تسكن معه، فلا يتركها»** (**١كو٧: ١٢**).

٦- فلماذا إذًا لم تعبر عن فكرتك بمثل هذا الوضوح فيما يختص بالعذارى أيضًا؟ هذا لأن المسيح قد أعلن مشيئته بوضوح في هذا المجال، رافضًا إعطاء الأمر طابع الوصيّة الإلزامي، ففى قوله: **«من استطاع أن يَقْبَل فَلْيَقبل»** (**مت١٩: ١٢**) ترك حرية الاختيار لسامعه. هكذا عندما يتحدّث الرسول عن البتوليّة يقول: «أُريد أن يكون كل الناس كما أنا» أىّ في حالة البتوليّة، وأيضًا: **«أقول لغير المتزوّجين والأرامل إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا»** (**١كو٧: ٨**).

٧- في البداية ترك الاختيار لسامعه أولاً ولا يقول له نصيحته إلاّ بعد استمالته. وبما أن كلمة البتوليّة تشير إلى التجارب القاسية، لذلك ما كان يسارع في الحثّ عليها، بل راح يمهد لذلك، ثمّ كشف بعد ذلك عن فكرته. لقد سمعتَ بالبتوليّة الاسم الذي يُنذِر بأتعاب ومشقّات جمّة فلا تَخَف، فهى ليَست أمرًا مُلزمًا. فالذين اقتبلوها طوعًا واختيارًا نالوا بالمقابل خيراتَها الخاصة حتمًا، إذ تُتوِّج رؤوسهم بإكليلها المتلألئ اللامع، أمَّا الذين يعارضونَها ويرفضون قبولها فلن يعاقبهم أو يُرغمهم قطّ على هذا السلوك رغمًا عنهم.

٨- فضلاً عن أنه بهذه الطريقة لم يستأصل من حديثه ما من شأنه أن يكون مصدر إزعاج، بل أظهر أيضًا بأن هذه النعمة لا تُعزى إليه بل إلى المسيح، فهو لا يقول: «أمَّا العذارى فأنا أوصيهم» بل «ليس لدى أمر»، تمامًا

كما لو كان يقول: «لو كنت أقول هذا انطلاقًا من أفكار بشرية لما كان ينبغي الوثوق بي، ولكن بما أنّ هذه مشيئة الله فحرية الاختيار أمرًا لا شك فيه. ليس في إمكاني أن أُعطيكم مثل هذا الأمر، ولكن إذا ما أردتم سماعي، كرفيق لكم في الخدمة، فأقول: **«إني أُعطى رأيًا كمن رحمه الرب أن يكون أمينًا»** (**١كو٧:٢٥**)».

٩- هنا يجدر بنا أن نبدى إعجابنا ببراعة الرسول البالغة وحكمته، وكيف وهو بين أمرين متعارضين- يُظهرهما بمظهر لائق- من جهة لكي تجد مشورته من يصغى لها، إذ يقول: «كمن رحمة الرب» لا من أجل الافتخار بل إتضاعًا منه.

٤٢- في تواضع الرسول بولس.

١- أنه لا يقول: «إني أعطيكم رأيًا كمن اؤتُمن على الإنجيل، واستحقّ أن يكون أهلاً لبشارة الأمم، وإني مُكلف بتوجيهكم كمعلّم ومرشد لكم». ماذا يقول إذًا؟ «كمن رحمة الرب أن يكون أمينًا»، متذرعًا بذلك بسبب أقل أهمية، فكون المرء أهلاً للثقة فقط هو أمر أقل أهّمية من أن يكون مُعلّمًا للمؤمنين. بل هو ينوى أن يتّضع أيضًا بطريقة أخرى. وما هي؟ إنه لا يقول: «كمن هو أن يكون أمينًا»، بل «كمن رحمة الرب أن يكون أمينًا». فلا تظنوا إذًا أن الرسالة والكرازة والتعلّيم فقط من فِعل السخاء الإلهي، بل أيضًا الإيمان ذاته قد وُهب لي برحمة الرب. وأنه لم يُنَعم عليّ بالإيمان لأنني كنت مُستحقًا له، بل من أجل هذه الرحمة فقط، فالرحمة هي نعمة وليست بناءً على الاستحقاق.

٢- وهكذا لولا رحمة الله فعلاً لما صرت رسولاً، بل لما استطعت أيضًا أن أكون مؤمنًا. هل رأيت مشاعر الخادم النبيلة وتواضع قلبه؟ وكيف أنه لا ينسب لذاته شيئًا أكثر من الآخرين؟ بل حتى الإيمان المشترك بينه وبين تلاميذه، لا يدّعي بأنه كان من عمله. وإنما من رحمة الله ونعمته، كما لو كان يصرّح من خلال هذه الكلمات قائلاً: «لا تزدروا من أن تقبلوا مشورة مني، طالما أن الله نفسه لم يأنف من أن يهبني رحمة من لدنه، خصوصًا وأن المقصود هنا ليس أمرًا بل مجرد رأى، إذ أني أعطى رأيًا ولا أضع قانونًا. والحال أن ما من ناموس يحرّم إبداء أو إقتراح الأفكار النافعة التي تخطر في البال، لاسيّما إن ذلك كان بناءً على رغبة السامعين، تمامًا كما حدث معكم». فهو يقول: **«فأظن أن هذا حسن»** (**١كو٧:٢٦**). هل رأيت، مرّة أخرى، تحفُّظه فى كلامه الذي يخلو من كل سلطة؟ على الرغم من أنه كان قادرًا على التكلّم هكذا: «بما أن الرب لم يأمركم بالبتوليّة، فلن أفعل أنا ذلك أيضًا. غير أني أنصحكم بِها وأحثّكم على ممارستها بَغيرَة، كوني رسولاً إليكم».

٣- تمامًا كما يتوجّه إليهم فيما بعد بقوله: **«إن كنت لست رسولاً إلى آخرين، فإنما أنا إليكم رسول»** (**١كو٩:٢**). ولكنه هنا لا يعبِّر عن أيّ شيء من هذا القبيل، بل أن كلماته تتّسم بالكثير من الحكمة. فبدلاً من أن يقول: أنصحكم، يقول: «أُعطى رأيًا»، وبدلاً من: «كمن هو معلّم»، يقول: «كمن رحمة الرب أن يكون أمينًا». وكما لو كانت هذه العبارات غير كافية لإضفاء التواضع على أقواله، راح يحدّ من شدّة وطأتها، ومن كلماته الأولى في مشورته، لم يكتفِ بعرضها فقط، بل أضاف إليها سببًا بقوله: «أظن أن هذا حسن بسبب الضيق الحاضر». وعندما تكلّم عن العفّة لم

يستخدم كلمة «أظن»، دون أن يعطى سببًا لها، بل قال فقط: **«حسن لهم إذا لبثوا كما أنا»** (١كو٧:٨)، أمَّا هنا فيقول: «أظن أن هذا حسن بسبب الضيق الحاضر». وإذا ما تصّرف هكذا، فهذا ليس تشككًا منه في هذه المسألة— حاشا- بل لرغبته في أن يترك القرار لسامعيه، وهذا ما يفعله من يعطى المشورة إذ لا يحكم هو لصالح ما يدعو إليه، بل يترك الحكم بشأنها لسامعيه.

٤٣- في مفهوم الرسول بولس للضيق الحاضر.

ما هو إذًا هذا الضيق الذي يتكلّم عنه هنا؟ هل هو الضيق الجسدي؟ بالقطع لا. لأنه لو كان هذا هو المقصود لكان- أولاً- قد تصّرف خلافًا لرغبته (فيما يختص بشهوة الجسد)، لاسيّما وإن الزواج يستهدف إخماد نار الشهوة وتذليل الضيق الذي تسبّبه، ولما عمد- ثانيًا- إلى تسميته ضيقًا حاضرًا. إذ أنه ليس وليد اليوم، بل هو متأصّل في الجنس البشري منذ القدم، وكان أشدّ عنفًا وجموحًا فيما مضى، إلى أن أتى المسيح ونمت الفضيلة فصارت هناك إمكانية لعلاجه. فالكلام الذي نحن بصدّده لا يتعلّق بهذا الضيق، بل يشير إلى ضيق آخر متعدّد الأشكال والأوجه. ما هو هذا الضيق؟ إنه تأثير الدنيوّيات الفاسد، وطغيان الاهتمامات، وكثرة المشاكل التي تنهال علينا، والتي غالبًا ما يكون المتزوّج فيها مرغمًا على ارتكاب الزلل، ولو بدون رضاه.

٤٤- في أن الفوز بالملكوت بالبتوليّة أسهل ممّا بالزواج.

١ – هذا المستوى من الفضيلة لم يكن مُقدمًا إلينا قديمًا، فلقد كان بالإمكان آنذاك الانتقام للإهانة، ومقابلة الشتيمة بالشتيمة، والولع بالثروات،

والتعهد بقسَم، والعين مقابل العين، وبغضة الأعداء، ولم يكن محظورًا لا اللهو ولا الغضب ولا تطليق امرأة لاستبدالها بأخرى، وليس هذا فحسب، بل أن الناموس نفسه كان يسمح اتخاذ امرأتين معًا تحت سقف واحد، مُتساهلاً جدًا في هذا الأمر كما وفي سائر الأمور الأخرى. ولكن، بعد مجئ المسيح صارت الطريق أشدَّ ضيقًا بكثير، لا لأنّ هذه الأمور التي سبق وذكرتَها لم تعد متروكة لحرية اختيارنا فحسب، بل ولأن المرأة التي غالبًا ما تحثّنا وتُكرهنا على ارتكاب الكثير من الخطايا رغمًا عنّا، تلازمنا دومًا في البيت، وإذا أردنا تخليتها، نُتّهم بالزنا.

٢- ليست الفضيلة صعبة المنال لأجل هذا السبب فقط، بل لأن الزوجة، وإن كانت مُحتملة الطباع، إلاّ أن هناك العديد من الاهتمامات التي تُحاصرنا بها، هي أم أولادنا، لا تعطينا فرصة- ولو للحظة قصيرة- حتى نرفع أعيننا نحو السماء، تمامًا كما لو أن دوّامة تجرفنا وتغمر أنفسنا من كل جهة. فالزوج الذي يريد أن يعيش حياة هادئة زاهدة عادية، يجد نفسه مُرغَمًا على اقتحام خضَمّ الأمور العامة، ولو على مضض منه، حين يرى من حوله أولادًا وامرأة لهم احتياجات دائمة. وحالما ينهمك في هذا الخضمّ يتعذّر تعدّاد الخطايا التي يكون مُلزَمًا بارتكابها، من غضب، وعنف، وقسَم، وشتيمة، ورياء، وتصرّفات غالبًا ما تكون على سبيل المجاملة وأحيانًا ما تكون عن حقد. فكيف يمكنه وهو وسط عاصفة كهذه تتقاذفه في سعيه إلى رخاء العيش، ألاّ يتلوّث بدنَس الخطايا فعلاً ؟

وإذ ما فحصنا عن كثب أموره العائلية لوجدناها مُثقلة هي أيضًا بالمشقّات عينها، لا بل بما هو أكثر مشقّة منها بسبب امرأته. فعليه أن يهتّم

بالكثير من التفاصيل، لمواجهة الكثير من المشاكل التي لا تطرأ على الرجل غير المرتبط بأحد سوى نفسه، هذا فيما لو كانت المرأة متواضعة وديعة. أمَّا إن كانت رديئة لا تُطاق، فالحديث لا يكون حينئذ عن ضيق ما وحسب، بل وعن العذاب والعقوبة أيضًا! فكيف يمكنه أن يتقدّم في طريق السماء، التي تتطلّب أرجلاً طليقة خالية من القيود ونشيطة ويقظة، إن كان مُنهكًا بمتاعب هذا مقدارها، ومُقيدًا بُربُط هذا مقدارها، ومُنجذبًا نحو الأرضيات بمثل هذا القيد، أعني سوء زوجته؟

٤٥- في أنّه من غير الممكن على مخترعي المشقّات الزائدة أن يتوقّعوا منها أيّة مكافأة.

١- ولكن ما هو الردّ الحكيم من الكثيرين على هذه الأمور التي ذكرناها؟ رُبّ قائل: «ألاّ يكون مستحقًا لمكافأة أكبر، ذاك الذي سلك الطريق المستقيم على الرغم من هذا الضيق؟»- كيف هذا أيها العزيز؟ ولماذا؟ يقول: «لأنه يعيش في الزواج محنة أقسى»- ومن الذي أجبره على قبول مثل هذا العبء؟ لو كان في عدم زواجه مخالفة للناموس، لبدا هذا الكلام حسن، ولكن، إذا كانت له الحرية في ألاّ يحني كتفه لنير الزواج، لكنه رضى، طوعًا ودون إكراه من أحد، بأن يحيط نفسه بكل هذه المشقّات ليزيد بذلك في حربه من أجل الفضيلة، فهذا الأمر لا يتعلّق البتة «برئيس الحلبة»، الذي إنما أعطى وصية واحدة فحسب، ألا وهي أن يُحسن القتال ضد إبليس حتى يحرز الانتصار على الشرّ، ولا يهمّه بعدُ كثيرًا إن كانت هذه النتيجة عبر الزواج والملذّات مع آلاف الاهتمامات المتعلّقة بِها، أو عبر النسك والإماتة وعدم الاهتمام بأي شيء آخر. لأن

الوسيلة التي قال لنا الرب عنها لإحراز النصر والطريق التي تؤدى إلى الغلبة، إنما هي الإنحلال من كافّة الأمور الزائلة.

٢- أمَّا أنت، فمع امرأة وأولاد ومع ما يترتب عليها من متاعب، تدّعى القتال والحرب، ظانًا أن في إمكانك الحصول على نفس النتائج التي ينالها ذاك الغير مرتبك بأيّ من هذه القيود، ومؤملاً بذلك أن تكون موضع إعجاب عظيم! قد تتّهمني بالكبرياء إذا ما قلت لك إنه يستحيل عليك بلوغ القمّة عينها على مِثالهم، لكن في النهاية يوم توزيع الأكاليل ستقتنع جيدًا بأن السلامة أفضلَ بكثير من الطموح العقيم، وأن الطاعة للمسيح أجدر من الطاعة لغرور الأفكار الخاصة. فالمسيح يقول بأنه لا يكفى لنكون أنقيّاء، أن نتخلّى عن كل ما نملك، ما لم نبغض حتى أنفسنا (**انظُر لو١٤: ٢٦**)، أمَّا أنت الغارق وسط هذه الاهتمامات كلها تتدّعى أنك قادر على التغلّب عليها. ولكنك ستكتشف جيدًا في ذلك الحين، كما سبق وقلت، كم تكون المرأة والاهتمامات عقبة أمام بلوغ الفضيلة!

٤٦- في أنه إذا ما كانت المرأة عقبة أمام بلوغ الحياة الكاملة، فلماذا دعاها الكتاب مُعينًا لزوجها؟

١- رُبّ قائل يقول: كيف تكون المرأة عقبة تلك التي دعاها الرب مُعينًا؟ إذ يقول: **«فأصنع له مُعينًا نظيره»** (**تك٢٢: ١٨**). وأنا بدورى أسألك: كيف يمكنها أن تكون عونًا، تلك التي أفقدت الرجل الأمان الذي كان يتمتّع به وطردته من المكان العجيب في الفردوس لتُلقى به في هذا العالم؟ إنَّها لم تكن مُعينة وحسب، بل كانت أيضًا مُرشِدة غادرة. فلقد قيل: **«من المرأة نشأت الخطيئة وبسببها نموت نحن أجمعون»** (**سيراخ٢٥: ٢٤**)،

والطوباويّ بولس يقول أيضًا: **«وآدم لم يُغو، لكن المرأة أُغويت فحصلت على التعدّى»** (**١تى٢: ١٤**).

٢- كيف يمكنها أن تكون مُعينًا، تلك التي أخضعت الرجل للموت؟ كيف يمكنها أن تكون مُعينًا، تلك التي بِها هلك أبناء الله في الطوفان، بل جميع ساكنى الأرض في ذلك الحين، مع البهائم وسائر الكائنات الحيّة (**تك٦: ١**)؟ أليست هي من كانت ستتسبّب في هلاك أيوب الصدّيق (**أي٢: ٩**)، لو لم يكن رجلاً بالحقيقة؟ أليست هي من أهلكت شمشون (**قض٦: ١٦**)؟ أليست هي من قادت جنس العبرانيين بأسَره إلى عبادة بعل فغور، فهلكوا على يد إخوانَهم بنى جنسهم (**عد٢٥: ١-٥، يش٢٢: ١٧**)؟ وآخاب، من الذي أسلمه خصوصًا إلى الشيطان (**١مل٢١**)؟ وقبله سليمان، على الرغم من سعة حكمته وشهرته (**١مل١١: ١-٨**)؟ واليوم أيضًا يُقنعون أزواجهن غالبًا بالاساءة إلى الله؟ أليس لأجل ذلك يقول لنا ذاك الرجل الحكيم: **«كل خبث ولا خبث المرأة»** (**سيراخ٢٥: ١٩**).

٣- قد يقول أحد عندئذ: لماذا قال الله إذًا: **«فأصنع له مُعينًا نظيره»** (**تك٢: ١٨**)؟ لأن الله لا يكذب... وأنا أيضًا لا أدّعى ذلك، حاشا، بل كل ما أريد قوله هو أن المرأة قد خُلقت لهذه الغاية ولأجل هذا السبب، لكنها لم ترد أن تثبت في كرامتها الخاصة، تمامًا كما فعل رجلها هو الآخر. فهذا الذى جبله الله على صورته ومثاله، قائلاً: **«نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا»** (**تك١: ٢٦**)، كما قال أيضًا: «فأصنع له مُعينًا نظيره»، ولكن حالما خُلقت خسر الإنسان سريعًا كِلا الأمرين، إذ لم يثبت على صورته ومثاله- كيف ذلك- هل كان لمجرد انقياده لشهوة منحرفة، واستسلامه

للخديعة، وعدم ضبطه لشهوته؟ إن صورة الله التي كانت فيه سُلبت منه، ولو بدون رضاه.

٤- لقد حَرمه الله في الواقع جزءًا لا يُستهان به من سلطته، فالذي كان يهابه الجميع كسيّد، صار محطّ ازدراء لرفقائه في العبوديّة، فهو كخادم أساء إلى سيّده. لقد كانت جميع البهائم أيضًا تخشاه في البدء، إذ أن الله قد أتى بها كلها إليه، دون أن تجرؤ أيّ منها على أذيته أو مهاجمته، إذ كانت صورة المُلك متلألئة فيه ولكنه ما لبث بسقوطه أن أظلم هذه السمات. فنُزعت عنه هذه السيادة.

٥- وإن كان لم يَعد بعدُ متسلّطًا على جميع الكائنات التي على الأرض، بل صار يجزع خوفًا من بعضها، فهذا لا يكذّب كلام الله القائل: **«فيتسلّطون....على كل الأرض»** (**تك١: ٢٦**)، لقد كان انتزاع هذه السلطة بسبب من اقتبلها، لا من وهبها. وهكذا الأمر بالنسبة إلى الفخاخ التي تنصبها النساء لأزواجهنّ، فهذا ما يزعزع حقيقة الكلام القائل: «فأصنع له مُعينًا نظيره» لأن المرأة قد خُلقت في الواقع لهذه الغاية، ولو لم تثبت على الأمانة لها. أضف على أن العون الذي تبديه إنما يتعلّق بالحياة الحاضرة، وإنجاب البنين، وشهوة الجسد، أمَّا حين لا يكون هذا واردًا، في تلك الحياة الحاضرة، أفلا يكون من العبث عندئذ أن نتكلّم عن مُعين؟ فالمرأة التي كانت قادرة على العون في الأمور الأقل أهمية وحسب، حينما اُلتمس مؤازرتَها في العظائم، لم تكن عديمة النفع لزوجها فقط، بل حصرته في كثرة الاهتمامات.

٤٧- في أنه كيف تكون المرأة مُعينًا لرجلها في الأمور الروحية؟

١- رُبّ معترض يقول: بماذا نردّ إذًا على الطوباويّ بولس عندما يقول: **«لأنه كيف تعلَمين أيتها المرأة، هل تخلّصين الرجل؟»** (١كو٧: ١٦)، ألاّ يشير هنا إلى أن معونتها ضروريّة في الأمور الروحية؟ وأنا أيضًا أُقرّ بذلك، ولا أجرّدها إطلاقًا عن مساندتَها في الروحيّات، حاشًا! بل ما أجزم به فقط هو أنَّها لا تقدّم هذه المساندة بمجرد الممارسة الزوجية، بل عندما تتجاوز الطبيعة الانثوية للإرتقاء إلى فضيلة الطوباويين من الرجال. وهي لن تستطيع تفعل ذلك، من خلال العناية بجمالها، ولا في المُتَع الجسدية ولا في مطالبتها زوجها بالمزيد من المقتنيات، ولا في التبذير والإسراف، بل عندما تترفّع عن كل هذه الأمور، واضعة في ذاتَها سِمات حياة الرسل، مُظهرة وداعة عظيمة، وتواضعًا، واحتقارًا للثروات، وذلك حين تقول: **«فإن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بِهما»** (١تي٦: ٨)، وعندما تُترجم هذه الكلمات إلى أعمال، فتسخر من الموت الجسدى مُعتبرة الحياة الحاضرة كَلا شيء، وحين تثق مع النبي بأن مجد هذه الحياة كله إنما هو كزهر الحقل (إش٤٠: ٦).

٢- هي لن تخلّص رجلها انطلاقًا من واجباتَها كزوجة، بل بحياتَها الإنجيلية، وهذا ما حققته نساء كثيرات حتى غير المتزوّجات. فلقد قيل إن بريسكلاّ أخذت أبلوس إليها وأرشدته إلى طريق الحق (أع١٨: ٢٤-٢٦)، وإذا لم يكن هذا الأمر مُباحًا اليوم، إلاّ أنه من المستطاع عند المتزوّجات أن يُبدين الغَيرَة ذاتَها [تجاه أزواجهنّ وأولادهنّ بشكل خاص]، ويجنّون بذلك ذات الثمار.

كما سبق وقلت أن تأثير المرأة على رجلها، لا يتأتّ عن كونَها زوجة، فما من شيء يحول عندئذ دون اهتداء كافّة المتزوّجين [غير المؤمنين] بنساء مؤمنات، إذا ما كانت الحياة الزوجية المشتركة تُحدِث فعلاً مثل هذه النتيجة. لكن الأمر ليس كذلك على الإطلاق، إن الذي يضمن لشريكها خلاص نفسه، إنما هو إظهار الحياة الإنجيلية والتّحلّي بصبر عظيم، واستهزاء بعقبات الزواج، والثبات في انتهاج هذا السلوك دومًا. أمّا إن استمرّت على المطالبة بحقوقها كزوجة، فهي لن تكون قليلة النفع بالنسبة إليه وحسب، بل وسوف تُلحق الضرّر به أيضًا، وتكون الحالة هنا أصعب الأمور شأنًا. اسمع ما يقوله الرسول: «لأنه كيف تعلَمين أيتها المرأة، هل تخلّصين الرجل؟»، أمّا نحن فقد اعتدنا على طرح الأسئلة بِهذا الشكل عندما يتعلّق الأمر باحتمالات مُستبعدة.

٣- ثم ماذا يقول؟ **«أنت مرتبط بامرأة! فلا تطلب الانفصال. أنت منفصل عن امرأة! فلا تطلب امرأة»** (**١كو٧:٢٧**). أترى كيف ينتقل دومًا من الفكرة إلى نقيضها، وكيف يمزج ما بين التحريضَين بدقّة وإحكام! فكما أنه في كلامه عن الزواج قد أقحم بعض الملاحظات بشأن العفّة ليحثّ من ثمّ سامعه، هكذا يمزج كلامه هنا أيضًا ببعض الملاحظات المتعلّقة بالزواج. وذلك بعد أن بدأ كلامه عن البتوليّة (**١كو٧:٢٥**)، بل وحتى قبل أن يقول شيئًا، يعود في الحال مُستأنفًا كلامه بشأن الزواج. فالعبارة: «ليس عندي أمر» إنما صدرت ممّن يسمح بالزواج ويوافق عليه، وحين أتى على ذكر البتوليّة قال: «أظن أنه حسن»، وحين رأى بأن التكرار المتواصل لكلمة «بتوليّة» ربما قد يصدم الآذان الضعيفة، لم يستخدمها من ثمّ باستمرار، بل لم يتجاسر على ذكرها من جديد، ولو كان قد أعطى سببًا لرأيه في

التشجيع على أتعاب البتوليّة، أعني «الضيق الحاضر». فماذا قال؟ **«إنه حسن للإنسان أن يكون هكذا»** (**١كو٧:٢٦**)، ولم يسترسل في فكرته، بل يختصر فيها ويتوقّف عنها قبل أن تبدو ثقيلة، ثمّ يتابع كلامه بشأن الزواج فيقول: «أنت مرتبط بامرأة! فلا تطلب الانفصال». ولو لم يكن هذا هدفه فعلاً (أن يشجّع سامعه)، لكان من غير الضروري أن يتأمّل في موضوع الزواج وهو يسعى إلى النصح بالبتوليّة. فأنه يعود إلى البتوليّة، دون أن يسمّيها باسمها هنا أيضًا، فيقول: «أنت منفصل عن امرأة! فلا تطلب امرأة».

٤- ولكن، لا تَخَف، فهو لا يكشف عمق فكرته كما ولا يشرّعها، لأنه لا يتوانى في العودة سريعًا إلى موضوع الزواج، مبدّدًا التخوّف بهذه الكلمات: **«إن تزوجت لم تخطئ»** (**١كو٧:٢٨**). هنا أيضًا لا تفقد شجاعتك، فهو إنما يجتذبك إلى البتوليّة، وهذا ما يريده بكلامه الذي يعلّمنا أن المتزوّجين **«لهم ضيق في الجسد»** (**١كو٧:٢٨**)، تمامًا كما يفعل الأطباء الماهرون بمرضاهم، فعندما يريدون أن يقدموا دواء مرّ أو يقوموا بإجراء عملية جراحية، أو كيّ، أو أي إجراء آخر من هذا القبيل، فهم لا يقومون بذلك دفعة واحدة، بل يُمهلون المريض ليلتقط أنفاسه من حين إلى آخر، وهكذا يبلغون دومًا إلى تحقيق ما يريدونه. وهذا ما فعله أيضًا الطوباويّ بولس الذي لم يعط مشورته في البتوليّة دفعة واحدة، وبلا تمييز، بل كان يشملها دومًا بملاحظات حول الزواج، مُخفيًا بذلك عما يُنفَر منه في البتوليّة. وجاعلاً كلامَهُ جذابًا وسهلاً.

٥- ولكن يحسن بنا الآن أن نفحص تلك العبارات. يقول: «أنت مرتبط بامرأة! لا تطلب الانفصال»، هذه ليست مجرد مشورة بقدْر ما هي

شهادة عن الرباط الزيجي الذي لا تُفصم عُراه. لماذا لم يقل: «ألديك زوجة؟ لا تتركها، بل عش معها ولا تنفصل عنها»، بدلاً من أن يدعو الاتحاد الزيجي رباطًا؟ هذا لكي يُبرز الطابع الإلزامي لهذه الحالة. وبما أن الجميع يُسرعون إلى الزواج كمن هم ذاهبين إلى نزهة. عمد من ثمّ إلى إظهار الشبه القائم ما بين المتزوّجين والمعتقَلين المكبَّلين بالقيود. فكما أن واحد من هؤلاء إذ جذب القيد توجّب على الآخر أن يتبعه، وإن لم يفعل هذا هلك هو وشريكه، هكذا الأمر في الزواج- ربما، هناك من تعترض قائلة: «ماذا إذا لو كنت أنا ابتغي العفّة وكان زوجي ميالاً إلى الأرضّيات؟»- نعم، يجب عليك أن تتبعيه، لأن القيد الذي يفرضه عليك الزواج يجتذبك نحو من ارتبطتِ به منذ البداية، حتى ولو لم تريدي أنت ذلك. أمَّا إن قاومت راغبة في الإفلات، فلن تتخلّصى من رُبُطك فحسب، بل ستعرّضين أيضًا نفسك لأقسى العقوبات.

٤٨- في أن المتعفّفة خلافًا لرغبة زوجها- إنّما تنال عقابًا أقسى منه إن أخطأ.

١- ذلك أن التي ترغب في التعفّف خلافًا لرغبة زوجها لن تُحرم فقط من مكافآت العفّة، بل ستكون أيضًا مسئولة عن سلوكه الخائن وسوف تعطى عنه حسابًا عسيرًا. لماذا؟ لأن هي من دفعته إلى هاوية الزنا بحرمانه من هذا الحق. وإذا لم يكن هذا السلوك ولو لفترة قصيرة بدون موافقة الزوج، فأي عفو يمكن أن تنتظره، تلك التي تحرّم زوجها دومًا من هذا؟- فيقال عندئذ: «هل هناك ما هو أكثر إرهاقًا من هذا الإكراه ومن هذا التحقير؟»- نعم هذا هو رأيي أيضًا: لماذا ترضخ لإكراه كهذا في مثل هذه

الحالات؟ كان من الأولى الأخذ بهذا التفكير قبل الزواج وليس بعده.

٢- لأجل ذلك عمد الطوباويّ بولس إلى ذكر الإكراه الذي يفرضه الرباط الزوجي فبعد قوله: «أنت مرتبط بامرأة! فلا تطلب الانفصال» أضاف: «أنت منفصل عن امرأة! فلا تطلب امرأة» وهو يتصرّف على هذا النهج، لكي يحثّ أولاً على الانتباه بعناية إلى قوة الرباط الزيجي وعلى التبصّر فيه، ولكي يُقابل كلامه عن البتوليّة من ثمّ باستحسان أكبر ثم يقول: **«لكنك وإن تزوجت لم تخطئ، وإن تزوّجت العذراء لم تخطئ»** (**١كو٧: ٢٨**). فها عظمة الزواج تنجو من الاتهام، لا أن يكون مدعاة للإعجاب، فالإعجاب والتقدير إنما هو للبتوليّة، أمَّا المتزوّج فيكفي علْمه أنه لم يخطىء. قد يعترض عندئذ أحد ويقول: «لماذا تحثى على عدم طلب امرأة (طالما أن من يتزوج لا يخطئ)؟» ذلك لأن المرء حالما يُكبل بالقيود يصعب عليه أن يصبح طليقًا، فالزواج يأتي بالكثير من المشقّات- قلْ لي، هل هذا هو المكسب الذي من أجله تُبتغى البتوليّة، أن نتجنّب فقط ضيقات الجسد؟ من تُراه يتحمّل حياة البتوليّة لأجل مكافأة بمثل هذه التفاهة؟ من يرضى أن يُلقى بنفسه في حرب تكلّفه الكثير من المشقّة والعرق ليعود منها فقط بمثل هذا الثمن الزهيد؟

٤٩- في أنه لماذا يحوّل الرسول بولس أنظارنا عن متع الحياة ليوجّهنا نحو البتوليّة؟

١- ماذا تقول؟ أتدعوني إلى الجهاد ضد الشيطان- **«فإن مصارعتنا ليست مع دم ولحم»** (**أف٦: ١٢**)- وتدفعني إلى مواجهة عنف الطبيعة، وتحثني أنا اللحم والدم لمزاولة فضائل القوات غير المتجسدة ولا تكلمني إلاّ

عن خيرات أرضية ووعد بالإعفاء من مشقّة الزواج؟

لماذا لم يقل الرسول: إن تزوّجت العذراء فلا تخطئ، بل أنّها تُحرَم من الأكاليل المحفوظة للبتوليّة ومن الهبات العظيمة التي لا توصف؟ لماذا لم يعرّفنا بكافّة الخيرات التي تنتظرنا في الأبدية؟ وكيف يمضين إلى لقاء العريس حاملات المصابيح وملتحفات بالمجد واليقين التام للدخول مع الملك إلى خدر العرس (**مت٢٥:١**)، وكيف يتألّقن بكلّيتهن بالقرب من عرشه ومن منازل الملكوت؟ ولكن الرسول لا يأتي على ذكر أيّ من هذه الأمور، بل يتحدث أولاً وآخرًا عن ذاك الإعفاء من الضيقات الحياتيّة إذ يقول: «أنه حسن»، ولا يضيف: «بسبب الخيرات الآتية»، بل يقول «بسبب الضيق الحاضر». ثمّ بعد أن يقول: «إن تزوّجت العذراء لم تخطئ»، يصمت عن الهبات السماوية التي ستحرَّم منها، فيقول: **«مثل هؤلاء يكون لهم ضيق في الجسد»** (**١كو٧:٢٨**).

٢- بل ولا يتوقّف عند هذا الحدّ، بل يسترسل بالطريقة عينها إلى النهاية، فلا يحثّ على البتوليّة من أجل مكافآتها المستقبَلة، إنما يستعين بنفس الدافع ذاته مّرة أخرى إذ يقول: **«الوقت منذ الآن مقصر»** (**١كو٧:٢٩**). وبدلاً من أن يقول: «أُريد أن تتلألئوا كنجوم السماء وأن تظهروا أكثر تألّقًا من المتزوّجين»، يعود مجدّدًا على التحدّث في الأرضيات قائلاً: **«أُريد أن تكونوا بلا همّ»** (**١كو٧:٣٢**).

نفس الأسلوب الذي استخدمه أيضًا في موضع آخر، عندما كان يتحدّث عن الصبر في الشدائد حيث يعتمد نفس النهج في إبداء المشورة. فبعد أن قال: **«إن جاع عدوّك فأطعمه، وإن عطش فاسقِه»** (**رو١٢:٢٠**)، إذ

يُلزمنا بمثل هذا السلوك، ويأمرنا بأن نقاوم دواعى الطبيعة، وأن نجاهد لنطفئ هذه النار التي لا تُطاق؟ نراه لم يذكر فى أقواله عن المكافآت ولا كلمة واحدة فيما يتعلّق بالسماء والخيرات السماوية، فالمكافأة تكمن في الخسارة التي سينالها من أخطأ إلينا. إذ يقول: **«لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه»** (**رو١٢: ٢٠**).

٣- ولكن لماذا يلجأ إلى مثل هذا النوع من التشجيع؟ إن هذا ليس خطأ من جانبه، كما أنه لا يجهل كيفية استماله سامعه أو إقناعه، بل لأنه كان يملك هذه الفضيلة بالتحديد أكثر من سائر البشر، أعني بها فضيلة الإقناع. ما الدليل على ذلك؟ كلماته هو. ولكن أيضًا كيف ذلك؟ عندما كان يخاطب الكورنثيين- وهنا سنتكلّم أولا عن أقواله بخصوص البتوليّة- بأنه لا يعرف شيئًا فيما بينهم، إلاّ يسوع المسيح، وإيَّاه مصلوبًا (**١كو٢: ٢**)، والذين لم يستطع أن يكلّمهم كروحيين، بل كان لازال يسقيهم بعدُ باللبن لأنَّهم جسدّيون (**١كو٣: ١**)، والذين حين كتب إليهم هذه الكلمات كان يلومهم قائلاً: **«سقيتكم لبنًا لا طعامًا، لأنكم لم تكونوا بعدُ تستطيعون، بل الآن أيضًا لا تستطيعون، لأنكم بعد جسدّيون...وتسلكون حسب البشر»** (**١كو٣: ٢و٣**).

٤- لأجل ذلك كان يتذرّع بالأرضيّات المنظورة والملموسة، لكي يجتذبهم إلى البتوليّة ويصرفهم عن الزواج. كان يعلَم جيدًا بأنَّها ستكون فرصة مواتية له، أن يحرّك ويجتذب صغارًا يمشون بعدُ إلى الأرض، في التحدّث إليهم عن أمور أرضية. قلْ لي، لماذا كثيرون ممّن لم يزالوا غليظى الطباع، لا يتردّدون في أن يُقسِموا باسم الله- سواء في صغائر الأمور أم في

كبائرها- وأن يحنثوا من ثمّ بيمينهم، في حين أنّهم لا يغامروا قطّ على القَسَم على رؤوس أولادهم؟ مع أن الحنث باليمين والعقاب يكونان في الواقع أشدّ خطرًا في الحالة الأولى، غير أنّهم يتردّدون أكثر في هذا القَسَم الأخير عن الأول.

٥- كذلك الأمر بالنسبة إلى مساعدة الفقراء، فالأقوال المتعلّقة بالملكوت لا تحثّ سامعيها هنا- حتى وإن تجدّد الكلام فيها غالبًا- أن يتوقّعوا في الحياة الحاضرة حظوة لهم أو لأولادهم. على أيّ حال، يبدو الناس أكثر اهتمامًا بمثل هذا النوع من المساعدة عندما يتعافّون من مرض مزمن مثلاً، أو نجاتَهم من خطر داهم، أو نوالهم مقامًا رفيعًا أو منصبًا رئاسيًا، بالإختصار، يمكن التأكد بأن معظم البشر يتأثّرون خصوصًا بما يكون في أيديهم، ففي السعة والرخاء يكونون أكثر نشاطًا في هذا المجال، أمّا في الظروف المعاكسة فيشعرون بخوف أكبر لسرعة تأثّرهم بالتغير الحادث. لأجل هذا كان يتحدّث إلى الكورنثيين بمثل هذه الكلمات، كما كان يستعين بالأمور الحاضرة لاجتذاب أهل رومية إلى الصبر في التجارب.

٦- النفس الضعيفة عندما يُساء إليها، لا تتنازل بسهولة عن غضبها حين تُحدّثها عن أمور الملكوت وتعرَض أمامها الأمال البعيدة المدى، بقدْر ما تفعل ذلك حينما تأمل فى الثأر مّمن أساء إليها. ولذلك فلكي يَستأصل هذه الإساءات من جذورها ويُبطل الغضب، عَرضَ الطوباويّ بولس أفضل السبل لتعزية الضحيّة، لا لكى يسلبها الأمجاد التي تنتظرها في الدهر الآتي، بل يُسرع لاقتيادها، وبأيّة وسيلة كانت، إلى طريق الحكمة ولكيما يفتح أبواب المصالحة أمامها. ذلك لأن الخطوة الأولى في عمل الفضيلة هى الأكثر مشقّة، ولكن حالما يُنطلق لا يعود التعب من بعد شاقًا كما كان فى

البداية.

٧- مع أن ربنا يسوع المسيح لم يسلك بهذه الطريقة، سواء في كلامه عن البتوليّة أو عن الصبر في الشدّة فهو يَعرض ملكوت السماوات قائلاً: **«يوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات»** (مت**١٩ : ١٢**). أمّا حين يدعو إلى الصلاة من أجل الأعداء، فلا يذكر شيئًا عن الضرّر الذي يلحق بالجناة، كما ولا يأتي على ذِكر **«جمر النار»** (أم**٢٥ : ٢١**،رو**١٢ : ٢٠**)، بل أن كافّة هذه الأقوال توجّه إلى ذوى النفوس الضعيفة والعاجزين، أمّا هنا فيقودهم من ثمّ مستندًا على اعتبارات رفيعة المستوى. وما هي؟ يقول: **«لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات»** (مت**٥ : ٤٥**). انظُر كم هي عظيمة المكافأة! لا سيّما وأن سامعيه كانوا بطرس ويعقوب ويوحنا مع بقيّة الرسل، لذلك كان يحثّهم بالمكافآت الروحية. والرسول بولس أيضًا، كان يفعل الشيء ذاته حينما كان يتوجّه بكلامه إلى مثل هؤلاء السامعين. ولكن، إذ كان يخاطب الكورنثيين الأكثر بُعدًا عن الكمال، قدّم لهم فى الحال ثمار أتعابَهم، لكي يشرعوا في ممارسة الفضيلة بأكثر غَيرَة.

٨- لأجل هذا السبب عينه تغاضى الله قديمًا عن وعد اليهود بملكوت السماوات، بل منحهم تلك الخيرات الأرضية، ولم يهدّدهم بجهنّم إزاء أعمالهم الشريرة، بل بمصائب الدهر الحاضر كالأوبئة والمجاعات والأمراض والحروب والسبي وسائر الشرور الأخرى.

بالنسبة لإناس جسديين ففي هذا أفضل رادع، وذلك لأنَّهم لا يُقيمون وزنًا لما ليس حاضرًا أمامهم وما ليس فى متناول أيديهم. لذلك كان الرسول بولس أيضًا يتمسّك بالأمور التي قد تؤثر في بلادتَهم أكثر من

سواها. إذ أراد أن يُظهر أنه من بين الفضائل ما يتطلّب منا أتعاب جمّة وثمارها كلها تُحفظ لنا في الدهر الآتي، أمَّا البتوليّة، فهي تُقدم لنا مكافآت عظيمة أثناء ممارستها، إذ تُنقذنا من العديد من المتاعب والهموم هذا مقدارها. أضف على ذلك أنَّها تُهيء لنا تعليمًا ثالثًا في هذا الأمر. وما هو؟ أنه لا يجب الظن بأن هذه الفضيلة صعبة المنال، بل أنَّها مُستطاعة مقارنة بالفضائل الأخرى. وهذا ما فعله عندما أظهر لنا- ودون مقارنة- بأن الزواج يتضمن الكثير من المتاعب، كما لو كان يقول لمحدثه: «أتبدو هذه الحالة مزعجة وشاقّة بالنسبة إليك؟» هذا بالضبط ما أعتبره حجّة بالأولى للقبول، لقد أبدى تساهلاً هذا مقداره، حتى أنه أعدّ لنا همومًا أقل جسامة بكثير من الزواج. ولهذا يقول: أنى ما ادّخرت وسعًا في أن أُجنبكم الضيقات، لذلك ودّدت لو أنكم تعدّلون عن الزواج.

٩- هناك من قد يقول لي عندئذ: ولكن أىَ ضيقات؟ فإننا على العكس نجد في الزواج الكثير من البهجة والهناء. أولاً، نحن نتمتع بحرّية إشباع الشهوة- دون الإضطرار إلى مقاومة حروب الطبيعة الثائرة- وهذا يجعل الحياة أكثر سهولة، وأيضًا، لأن الحياة في هذه الحالة تكون في مأمن من الحزن والغمّ الشديد، وبالتالي تفيض بالبشاشة والفرح! فالموائد الفاخرة، والثياب الناعمة، والفراش الوثير، والأطياب، والكثير من أشكال الإنفاق الأخرى، تلك التي تُنشىء في عطاءها الكثير من الملذّات للجسد!

٥٠- حياة الملذّات محرَّمة في العهد القديم والجديد.

١- أولاً، هذه المكاسب لم تُمنح للزواج، لأن الزواج لا يسمح إلاّ بحرّية العلاقة الجسدية فحسب، لا حرّية الحياة في الملذّات عمومًا، وهذا ما

يشهد به الطوباويّ بولس حينما قال: «**وأمَّا المتنعِّمة فقد ماتت وهي حيّة**» (١تى٥:٦). وإن كانت هذه الكلمات موجّهة إلى الأرامل، فاسمعْ أيضًا ما يقوله للمتزوّجين: «**وكذلك أن النساء يُزّينّ ذواتهنّ بلباس الحشمة، مع ورع وتعقّل، لا بضفائر أو ذهب أو لآلئ أو ملابس كثيرة الثمن، بل كما يليق بنساء مُتعاهدات بتقوى الله**» (١تى٢:٩و١٠). وليس في هذا الموضع فحسب، بل ونراه أيضًا في موضع آخر، كيف يسترسل في الكلام عن ضرورة عدم الاهتمام بمثل هذه الأمور.

٢- فهو يقول: «**إن كان لنا قوت وكسوة، فلنكتف بِهما. وأمَّا الذين يريدون أن يكونوا أغنياء، فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرّة، تُغرق الناس في العطب**» (١تى٦:٨و٩). ولماذا أذكر الطوباويّ بولس الذي تكلّم بِهذه الأقوال في عهد النعمة وفيض الروح؟ اسمعْ أيضًا عاموس النبي، حين كان يخاطب اليهود الذين لا زالوا في مرحلة الطفولة في زمن كانت فيه الملذّات والترّف وكافّة الكماليات مُباحة، حين كان يبكّت بشدّة هؤلاء المنغمسين فى الملذّات قائلاً: «**ويل للآتين إلى يوم النكبة، المواظبين على سبوت كاذبة والمحتفلين بِها، المضطجعين على أسّرة من عاج والمتمرّغين على فراشهم، الآكلين الخراف من الغنم والمعلوفَ من العجول، الهاذرون على صوت العود، الشاربين الخمر النقى والمدَّهنين بالأطياب، الظانّين بأن هذه الخيرات ثابتة وليست زائلة**» (عا٦:٣-٦س).

٥١- في أنه حتى ولو كانت حياة الملذّات مباحة، إلاّ أن هموم الزواج كافية لملاشاة المتعة التي تُلتمس فيه.

كما سبق وقلت، إن حياة الملذّات لم تكن مباحة بالدرجة الأولى، بل

وحتى ولو لم يحرِّم أيّ من هذه الأمور بل كان كلّ شيء مسموحًا به، إلاّ أن الزواج بالمقابل ينطوى على العديد من مصادر الحزن والألم، بل إنَّها من الكثرة والخطورة بحيث أننا لن نشعر بأىَ احساس بِهذه المكاسب، ذلك لأن المتعة المرجوّة منها تتألق فقط في غياب متاعب الزواج.

٥٢- الغَيرَة كثيرة الأذى.

١- لنفترض إن هناك زوجًا غيورًا بطبعه، أو مُصابًا بِهذا الداء لأجل أسباب لا مبرّر لها، قلْ لي، هل هناك ما هو أكثر مدعاة للرثاء من نفس كهذه؟ كيف السبيل إلى وصف صورة دقيقة لهذا الصراع وهذه العاصفة في بيت كهذا؟ إن الألم يجتاح كل مكان، وكذلك الظنون والنـــزاع والاضطراب. أن الحياة مع من أصيب بمثل هذا الداء الجنوني تكون أقسى مّمن يَحيا مع مختلو العقل، أنه لا يكفّ عن التشويش والحركات الهوجاء ويصب فظاظته على الجميع، غضبه دومًا نحو الحاضرين معه، حتى بدون سبب، سواء أكان هؤلاء عبيدًا أو أبناء أو أىَ شخص آخر. فالمتعة قد وّلت كلها و لم يبق سوى الكآبة والأسى، سواء مكث في البيت، أو ذهب إلى السوق أو أقدم على سفر، ففي كل مكان يحمل معه هذا الداء الذي هو أكثر رعبًا من كل موت، والذى ينخس ويثير نفسه دون أن يمنحها أيّة هدنة. إن هذا الداء لا يولّد الغمّ فحسب، بل وغالبًا ما يولّد الضغينة التي لا تُحتَمل أيضًا. إن أىّ من هذه الشرور كافيًا بحدّ ذاته للقضاء على ضحيّته، إن هذا لا يُعبر عنه بالكلام، فأُولئك الذين اختبروا هذا الوضع يعرفونه جيدًا، فليس في وسع أىَ كلام أن يعبرّ عن خطورة هذه الكارثة. فعندما يكون المرء، في كل وقت، مُرغَمًا على الشك في امرأة يحبها أكثر من الجميع ويبذل نفسه بفرح من أجلها، فأىَ شيء إذُا يستطيع أن يجلب

التعزية؟

٢- سواء استسلم هذا الغيور للنوم أو كان يتناول طعامًا أو شرابًا تراه يتخيّل المائدة مليئة بالسموم القاتلة بدلاً من الأطعمة، وعلى فراشه لا يتوقف عن الارتعاد ولو للحظة، بل يتقلّب ويتململ كمن هو على جمر متقدّ. فلا الأصدقاء، ولا الاهتمام بأعماله، ولا الخوف من الأخطار، ولا المسّرة، ولا شيء من ذلك قادر على أن يخلّصه من إعصار كهذا، لأن تلك العاصفة تكون قد استولت على نفسه بعنف أقسى من كلّ مشقّة. هذا الذي إذ عاينه سليمان فقال: **«الغَيرَة قاسية كالهاوية» (نش٨:٦)**، وأيضًا: **«لأن الغَيرَة هي حميّة الرجل، فلا يُشفق في يوم الانتقام. لا ينظر إلى فدية ما، ولا يرضى ولو أكثرت الرّشوة» (أم٦:٣٤و٣٥)**.

٣- فالجنون يكتنف هذا المرض، حتى أن مُعاقبة المذنب نفسها لا تنجح في إزالة الألم. قد يلجأ الكثيرون من الأزواج إلى قتل الزاني، دون أن يتمكّنوا من إخماد غيظهم وغمّهم، بل إن منهم مَن يحتفظ بالنار التي تأكلهم حتى بعد قتل نسائهم، بل وإلى تأجيجها أيضًا. إذًا، هنا يحيّا الزوج مع كل هذه الشرور حتى ولو لم يكن هذا الأمر له أساس من الصحة، أمَّا هذه المسكينة التعسة فإنّها تتحمّل عذابات أكثر شدّة ممّا يعانيها زوجها، هذا الذي كان ينبغي له أن يكون مصدر تعزية لها والذي كانت تتوقّع منه أن يكون مُعينًا لها. فعندما تراه تحوّل إلى وحش كاسر وصار كألدّ الأعداء بالنسبة إليها، فبمن تستنجد من بعد يا ترى؟ وإلى من تلجأ؟ أين تجد العلاج لآلامها، طالما أن الميناء مُغلَق في وجهها، بل أنه محجوب عنها بالصخور التي لا حصر لها؟

٤- بل أن حتى الخَدَم أنفسهم يُهينونَها في مثل هذه الظروف أكثر مما يفعل زوجها. فهؤلاء الشكّاكين حينما تسنح لهم الفرصة لمعاينة النـــزاع بين أسيادهم، يجدون فيه حجة ليست بقليلة ليُطلقوا العنان لفظاظتهم الطبيعية. ويمكن لهم من ثمّ، وبكلّ أمان، أن يخترعوا ويتخيّلوا كلّ ما أرادوا، وأن يجعلوا الشكوك أكثر قبولاً بافتراءاتّهم. لأن النفس التي يستحوذ عليها هذا الداء الخبيث تكون مستعدة لتصديق كل شيء، فتُرهف السمْع بانتباه إلى الجميع وترفض التمييز بين الوشاة ومن هم ليسوا كذلك، حتى يبدو من يُغذون شكوكهم هم أهلاً للثقة أكثر مّمن يجتهدون في تبديد هذه الشكوك.

٥- وهكذا لم يعد أمامها سوى الخوف حتى من الخَدَم أنفسهم، من أولئك العبيد ونسائهم، ولم يعد لها بعد إلاّ أن تترك لهم المكان وتنـــزوى! متى يمكنها أن تحيّا بلا دموع؟ في أىَ ليل؟ في أىَ عيد؟ متى تكفّ التنهّدات والنوح والنحيب؟ فهناك من يتهدّدها ويُسفّهها ويُهينها في كلّ حين- سواء من جهة زوجها المصاب بالوهم أو من جهة الخَدَم الأردياء- من الرقابة والتجسس حيث القلق والذعر يلاحقها في كل مكان. ولم تعد هدفًا للمسائلة في الدخول والخروج فحسب، بل إن كلماتَها ونظراتَها وتنهّداتَها هي أيضًا تخضع للفحص الدقيق، مّما يُلزمها بالجمود كالصخر، لكى تتحمّل كل هذا بصمت وتبقى حبيسة في غرفتها بمرارة أكثر من أىّ سجين. وإن فتحت فاها بالشكوى أو أرادت الخروج فعليها أن تقدّم حسابًا عن كل شيء وأن تبرّر مسلكها أمام هؤلاء القضاة المُرتشين، أعني بِهم العبيد وعامّة الخَدَم.

٦- وإن شئت ووضعت بجانب هذه المصائب ثروة طائلة، ومائدة فاخرة، جيش من الخَدَم، واسمًا لامعًا، ونفوذًا عريضًا، ومجدًا عظيمًا، ونسب وحسب، حياة يُحسد عليها من الآخرين، اجمع بعناية كل هذه المزايا لتقارنَها بهذا الألم، لن ترى عندئذ ولا ظلّ متعة من هذه الأشياء التي عدّدتَها، إن ذلك كله سيتلاشي ببساطة كما تنطفئ الشرارة الصغيرة عند سقوطها في مياه المحيط الشاسع. هذا ما يحدث إذا ما كان الزوج غيورًا، أمَّا وإن انتقل هذا الداء إلى الزوجة- وهو احتمال ليس بقليل- فسيكون الرجل عندئذ أفضل حالاً من امرأته، وذلك لأن القسم الأكبر من الألم إنما سوف يقع هنا أيضًا، على هذه التعسة التي لن يكون في وسعها أن تتسلّح بنفس الأسلحة عينها ضدّ موضوع شكوكها. فمن مَنْ الرجال يقبل يا ترى بأن لا يبرح بيته قطّ إلاّ بناءً على رغبة زوجته؟

٧- من سيتجاسر من الخَدَم على مراقبة سيّده ولا يُلقى في السجن فورًا؟ إنَها لن تستطيع استخدام هذه الوسيلة لتتأكد بنفسها، وبالتالى لن تستطيع إطلاق العنان لغضبها حتى بالكلام، إذ ربما قد يتحمّل الزوج مزاجها السيّيء مرّة أو مرّتين، ولكن إن لم تكفّ عن معاتبته فلسَوف يُفهمها سريعًا بأنه من الأفضل لها أن تتحمّل الوضع وتبتلع اساءاته بهدوء. هذا لو كان مجرّد شك، أمَّا وإن اتّفق وكان هذا الأمر حقيقيًا، فعندها ما من أحد يستطيع انتزاع المرأة من يد زوجها المُهان، الذي إذ يجد فى القوانين عونًا له، فيسوق تلك التي كان يحبّها أكثر من الجميع إلى المحاكم ليعاقبها. وإن كان الرجل يفلَت من عقاب القانون الأرضي، لكنه يُحفظ لدينونة الله، ولكن هذا لن يكون كافيًا لتعزية هذه التعسة، التي يكون عليها عندئذ أن تُقاسى موتًا بطيئًا مثيرًا للشفقة، عندما تراه مع النساء

الساقطات. لذلك، فلا ينبغي على النساء التهافت على الزواج، حتى ولو أسرع إليه جميع الرجال، لأنّهنّ لن يستطعنّ الإدعاء بأن شهوتَهنّ طاغية إلى هذا الحدّ، لأنّهنّ من ناحية أخرى، سيجنين القسم الأكبر من مآسى هذه العلاقة، كما برهنّا ذلك في كلامنا.

٨- هناك من يقول عندئذ: «هل هذا هو إذًا نصيب كل الزيجات؟» على الأقل ليس الجميع معفيّين منه، في حين أنّهم في البتوليّة بعيدون كل البعد عن هذا. فالمتزوّجة تختبر خوف الشقاء، وإن لم تصادفه. إذ يستحيل على من رغبت مشاركة رجلٍ في حياته ألاّ تتوقّع وتخشى من كل المحن الملازمة للحياة المشتركة، أمّا العذراء فلن تتخلّص من هذه المتاعب وحسب، بل ومن خشيتها أيضًا- قد لا يكون هذا نصيب كلّ الزيجات- وأنا أيضًا لا أزعم ذلك، ولكن إن لم تجد هذا السوء فهناك شرور عديدة أخرى لتجدها، وإن حدث وتجنّبت هذه الأخيرة أيضًا فمن الصعب تحاشي الكل. كالأشواك التي تعلّق في الثياب عند عبور السياج الشائك، إن حاولت انتزاع إحداها تستوقفك أشواك أخرى غيرها، هكذا الحال بالنسبة إلى مشاكل الزواج، إن أفلتَّ من هذه نالت منك تلك، وإن تفاديت إحداها تعثّرت بأخرى. إجمالاً، يستحيل إيجاد زواج بلا همّوم.

٥٣- أن الزواج من رجل غنى أمر لا يُحسد عليه بل هو أكثر سوءً من الزواج من الفقير.

إن شئت فلنَدَع الآن جانبًا متاعب الزواج، ولنفحص ما يحدث فيه من جهة ذاك الهناء الجمّ الذي غالبًا ما يتمنىّ نواله الكثيرون، إذ لم نقل الجميع، ولنفحص في هذا الأمر عن قرب. أيَ أمرًا هذا؟ هَب أن رجلاً فقيرًا بسيطًا

قد اتخذ له امرأة من بيت ذى مكانة واقتدار وثراء كبير. سوف نجد بأن هذا الوضع المرغوب فيه لا يتضمن متاعب أقل مّما في ذاك الوضع البغيض سابقًا. فالنساء بصفة عامة غالبًا ما يكنّ متكّبرات وأكثر ضعفًا من الرجال- مّما يجعلهنّ بالتالى هدفًا لهذا الضعف بأكثر سهولة- وإن انتهزنّ هذه الفرصة لتغذية الكبرياء، فما من شيء عندئذ يستطيع كبحهنّ. وكما يأخذ اللهب بالحطب كذلك يبلغن بأعناقهنّ إلى درجة لم يُسمع بِها، فيعكسنّ الترتيب الموضوع ويقلبن كلّ شيء رأسًا على عقب. فالمرأة هنا لا تترك للرجل أن يبقى على مكانته كرأس لعائلته (**١كو١١:٣**)، بل تطرحه عن هذه المنـــزلة بغطرسة جنونية، لتصير هي الرأس والرئيس. هل هناك ما هو أسوأ من هذه الفوضى؟ هذا دون أن نتكلّم عن التجريح والسبّ والكيد، الأمر الذي لا يُحتمل فوق جميع الأمور!

٥٤- في أن الوضع سيكون بغيضًا أيضًا ولو استطاع الرجل إخضاع امرأة غنية لأوامره.

إذا ما قلتَ لي- وهذا قد سمعته من كثيرين عند الكلام في هذا الموضوع: «التكن غنية فقط، ولتكن لديها الثروة، وأنا من سيقوم بكسرها واذلال اعتدادها!» إن قولك هذا يدّل على جهلك، أولاً لأن هذا الأمر من أصعب الأمور شأنًا، بل وأنه سيتسبّب في ضرّر لا يُستهان به، وحتى ولو كان ذلك ممكنًا. فالمرأة إن أُخضعت قسرًا، إما عن خوف، أو تحت الضغط لأوامر زوجها، فإن الوضع عندئذ سيكون أكثر صعوبة مّما لو كانت هى التى تمارس هذه السيطرة، لماذا؟ لأن الضغط من جانب الزوج سيطرد كل حبّ وكل مودّة. فأيّة قيمة بعدُ لمثل هذا الزواج الذي هرب

منه الحب ليسكن فيه الخوف والإكراه؟

٥٥- في أن إتّخاذ رجل أكثر ثراء محنة لا تُحتمل.

هذا ما يحدث عندما تكون المرأة ثريّة، أمَّا إن اتّفق وكان الرجل هو الثريّ ولم تكن هي لديها شيء، فبدلاً من أن تكون زوجة تصير خادمة، وبدلاً من أن تكون امرأة حرّة تصير أَمة، وتفقد المكانة اللائقة بدورها، ويكون مصيرها ليس بأفضل حالاً من مصير العبيد. وإن سلك زوجها بالفجور وأتى بالساقطات إلى فراشها الخاص، فعليها إمّا أن تتحمّل كل شيء مبتسمة أو أن تترك البيت. وليس هذا هو الفظيع في الأمر وحسب، بل أنَّها لن تستطيع أيضًا مع زوج كهذا حتى أن تأمر الخَدَم والعبيد بحرّية، فتعيش كأنَّها دخيلة تنتفع بما لا يخصّها، وأن يكون شريكها سيّدًا لا زوجًا، وسوف تضطر للقيام بكلّ شيء وللقبول بكل شيء. هَب الآن أن رجلاً يرغب في الزواج بامرأة من مستواه، هنا ترى الأمر أيضًا يحكمه ناموس الطاعة، حتى ولو كان التماثل في الثروة يحثّ المرأة على مُضاهاة زوجها. قلْ لي، ما الذي نقرّره حقًا وسط كل هذه المتاعب التي تحيطنا؟ ولا تُعارضْني بأن تلك الزيجات النادرة المعدودة لم تتعرض لمثل هذه المحن، إذ يجب تعريف الأمور انطلاقًا من عمومها لا انطلاقًا من استثناءات لها.

٥٦- في أن للمتزوّجة أسبابًا عديدة للهمّ.

١- في البتوليّة من الصعب- إذ لم يكن من المستحيل- أن توجد مثل هذه المتاعب، أمَّا في الزواج فمن الصعب ألاّ توجد. وإذ ما كانت هموم وصعاب هذا مقدارها تحدث حتى في الكثير من الزيجات التي تُعتبر سعيدة،

فما الذى يمكن أن يقال إذًا بشأن أولئك الذين لا تُعد زيجاتّهم كذلك؟ فالمرأة هنا لا تخشى موتًا واحدًا (بعد الزواج) فحسب مع أنَّها لن تموت أكثر من مرة واحدة، فهى لا تقلق بشأن نفس واحدة فقط مع أنه ليس لها إلا نفس واحدة. فهي تخاف على زوجها، وعلى أولادها، ثمّ على عائلاتَهم، نساءً وأولادًا، وكما يمتد الجذْر ويتفرع لفروع كثيرة،هكذا يكون قلقها على الأخرين، فإن ألّمت خسارة بهذا أو ذاك من هؤلاء الأشخاص، سواء أكانت خسارة مالية أو مرضًا جسديًا أو أيّة مصيبة أخرى، فهي تتألّم وتتضايق، تمامًا بقدْر لا يقل عن الضحايا، وإن تركوا جميعهم العالم قبلها، فحزنَها لن يكون محتملاً، وإن بقى البعض على قيد الحياة ومات البعض الأخَر في ريعان الشباب، فإنَّها لن تجد- حتى في هذه الحالة- أىَ تعزية.

٢- أضف إلى ذلك الخوف الدائم الذي يهزّ كيانَها على الأحياء، وهو لا يقل البتّة عن الحزن الذي يعتصر قلبها على من انتقلوا من هذا العالم، بل والعجيب أيضًا أنه أشد الشعورَين قسوة. لأن عامل الزمن يخفف من حدّة الكآبة على الموتى، أمَّا القلق تجاه الأحياء فيزداد حدّة ولا ينتهي إلاّ بالموت وحده. وإذا ما كنّا غير قادرين على تحمّل أحزاننا الخاصة، فأيّة حياة ستكون حياتنا إذًا، إن كان علينا البكاء على متاعب الآخرين؟ وكثير من النساء ممّن وُلدن في أُسَر مرموقة، وترعرعن في ترّف بالغ، يتزوّجن من بعض الرجال ذوى النفوذ، ثمّ وفجأةً وقبل أن يتنعّمن بهذه الغبطة، يعصف بِهنّ خطر ينقضّ عليهنّ بغتة كالعاصفة أو الزوبعة، فيستسلمنّ لأهوال الغرق، فاللواتي قبل الزواج كن ينعمن بالخيرات التي لا تُحصى، غرّقهنّ الزواج في البؤس. هنا أيضًا من قد يعترض أحد ويقول: «إن هذه الأشياء لا تحدث بالضرورة ومن غير المحتمل حدوثها فى كل

الزيجات». أمَّا أنا فأجيب مُكرِّرًا الكلام وقائلاً: «على الأقل لا يُستثنى منها الجميع، فالبعض قد اختبروها بطريقة مباشرة، أمَّا من استطاعوا الإفلات منها فبالخوف من توقع حدوثها يتعذّبون، في حين أن العذراء على النقيض من ذلك تُجنّب نفسها هذا الاختبار وهذا التخوّف على الدوام».

٥٧- في الضيقات التي ترافق الزواج دومًا.

١- إن شئت فلندع هذه المسائل جانبًا، ولنفحص الآن تلك الضيقات التي تلازم الزواج والتي ليس في وسع أحدٍ أن يهرب منها، طوعًا أو كرهًا. فما هي هذه؟ آلام الحمل والولادة وتربية الأطفال، بل بالأحرى فلنأخذ الأمور السابقة للزواج ولنتعرّف عمّا يسبق الزواج بقدْر الإمكان، لأن العلم اليقين هنا وقْف على من خاضوا هذا المجال دون سواهم! ففي فترة الخطوبة، ترى العديد من الاهتمامات الكثيرة التي تبرز في الحال. فمن تُراه الرجل الذي سترتبط به؟ أيكون ذا أصل وضيع وسمعة رديئة، مغرورًا، منافقًا، متبجِّحًا، غيورًا، ضيّق الأفق، فظًّا؟ بالطبع أن كل ذلك لا يحدث بالضرورة لجميع المتزوّجات، بيد أن اهتمامًا وقلقًا بشأن ذلك كله لابدّ أن يكون لديهنّ بالضرورة. فطالما أنَّها لا تعرف بعدُ من يكون عريسها، وطالما أنَّها لا تزال في حالة من الشك إزاء ما ينتظرها، تجدها تتخوّف وتضطرب لهذا الأمر، حتى أن أيًّا من هذه الاحتمالات لا يغيب عن بالها. أمَّا إن زعم أحدهم بأنَّها قادرة أيضًا على أن ترجو عكس ذلك وأن تكون فرحة بالتالي، فلْيَعلمْ هذا جيدًا أن الرجاء بالخيرات لا يعزينا البتّة إذا كان الخوف من السيّئات يؤلمنا، ذلك لأن الأمل في السعادة لا يولّد البهجة ما لم يكن أكيدًا، أمّا من جهة السيّئات فمجرّد الظنّ يكفي لِيُلقى النفس

لساعته في الضيق والاضطراب.

٢- كما يحدث للعبيد نتيجة جهلهم للمكان وبمن سيكونون له عبيدًا، لا يترك لهم أي مجال للراحة، هكذا الحال بالنسبة إلى الفتيات. فنفوسهن عندما يحين وقت الخطوبة تشبه سفينة تتقاذفها العاصفة. إذ في كل يوم هناك من يُقبلون وهناك من يُرفضون مّمن يتقدّمون لطلبهنّ عند أهلهنّ، فمن يفوز في العشية يأتي آخر يُبعده في الغد، وهذا الأخير بدوره يأتي غيرُه ليُبعده من جديد- بل أحيانًا يحدث أن يُرفض العريس المنتظَر في مستهلّ الزواج ويرجع صفر اليدين، فيَعهد الأهل بالفتاة إلى متقدِّم آخر لم يكن في الحسبان. إن هذا ليس نصيبًا للنساء فقط، بل الرجال أيضًا يختبرون أمورًا مماثلة. إذ أنَّهم يريدون معرفة المزيد من الأمور بشأن العروس، تلك الفتاة القابعة في البيت، فكيف السبيل إلى معرفة طباعها؟ هذا ما يحدث في فترة الخطوبة، ولكن ما يأتى يوم الزواج حتى يتضاعف الصراع وتجد الخوف يكتسح أمامه كل بَهجة، من أن تبدو خالية من الجاذبية وأقل شأنًا بكثير مما كان يؤمّل. أن تُمدَح في البداية ثم تُحتقر لاحقًا فهذا أمر قد يُحتمل، أمَّا إن كانت الأمور توحى بالنفور منذ بدايتها تقريبًا، فكيف يمكنها إذًا أن تنتزع الإعجاب فيما بعد؟

٣- لا تقل لي: «ماذا لو كانت جميلة؟» حتى في هذه الحالة، فإنَّها لا تكون في مأمن من هذا القلق. فكم مّمن تمتّعن بجمال جسدى أخّاذ لم يستطعن سَبْيَ قلوب أزواجهنّ، الذين تركوهنّ وانصرفوا إلى أخريات لسن في مستواهنّ، بل وبعيدات عنه أيضًا! وما أن يتبدّد هذا القلق حتى يبرز قلق آخر مجدّدًا، فهنالك الهموم التي يسبّبها تحديد جهاز العروس- فوالد

العروس ينفذ كُرهًا ما وعد به على مضض لأن الأمر فيه خسارة بالنسبة إليه، والعريس يجدّ في الحصول على كل شيء ولكنه قد يخجل في استعمال الضغط، والعروس تشعر بالخزى من هذه المماطلة فتخجل أمام زوجها خاصة وأن أباها مَدين- وهنا أكفّ عن الكلام في هذا الأمر.

٤- وما أن يتبدّد هذا القلق حتى يخترق قلبها في الحال الخوف من العقم، أو العكس الخوف من النسل الكثير. هذان الهمّان المتناقضان يُقلقانَها منذ البداية، طالما أنَّها لا تزال مرتابة بعد بهذا الأمر، وإن حبلت سريعًا يمتزج الفرح لديها بالخوف مجدّدًا، إذ في الواقع لا يوجد شيء في الزواج لا يصاحبه الخوف، فهناك خوف من حدوث إجهاض، أو موت الجنين أو أن تتعرض لخطر الموت أثناء الولادة، أمَّا إن طال الانتظار من جهة الإنجاب فالمرأة لا تجرؤ عندها على أن تفتح فاها، كما لو كانت هي المسئولة عن ذلك. وفي وقت الوضع تأتي الآلام من ثمّ، وهي أوجاع قادرة وحدها على تبديد أفراح الزواج كافّة. ثم تنضمّ إلى هذه الاضطرابات غيرها مّما يُزيد في قسوتَها. فهذه الشابة التعسة التي أُرهقت بالآلام إلى هذا الحدّ تعانى عندئذ خوفًا ليس بأقلّ حدّة مّما سبق، وهو أن تلد طفلاً مُعاقًا بدلاً من أن يكون سليم البنية، أو أن تكون بنتًا بدلاً من ولدً. مثل هذا الصراع يُؤلم النساء أكثر مّما تُؤلمهنّ الأوجاع الجسدية، بل أيضًا حتى تلك الأمور التي لا دخل لهنّ فيها البتّة، لا يعفيهنّ من الخوف، ولا سيما أمام أزواجهنّ، فيتغاضين من ثمّ عن التفكير في سلامتهنّ، حتى ولو في أزمة كهذه، متخوّفات من حدوث أي أمر لا يرضى به رجالهنّ. وما أن يأتي الطفل إلى العالم ويُطلق صرخته الأولى حتى تبرز هموم أخرى مجدّدًا، من العناية الآن بخلاصه وتربيته.

٥- إن كان ذا صحة جيدة ميّال إلى الفضيلة، فها هي المخاوف مجدّدًا تنتاب والديه، إذ يخشيان من أن يُصاب بمكروه، أو أن يباغته موت مفاجئ، أو أن ينقاد إلى رذيلة ما. وإن حدث أحد من هذه الاحتمالات التي يُخشى منها، فالغمّ سيفوق أكثر مّما لو حدث هذا في البداية، أمَّا إن صار العكس وكانت كلّ هذه الخصال الحسنة متأصلة فيه، فيبقى على الأقل الخوف من التغيير ماثلاً لدى الوالدين، يحرمهما من استمتاعهم بالحياة.

ولكن ليس لكل المتزوّجين أولاد! ألاّ يكون ذلك مصدرًا آخر للأسى والضيق؟ إن الأحزان والهموم المتنوّعة ترهقهم، سواء أكان لديهم أولاد أم لا، وسواء أكانوا صالحين أو طالحين. كيف يمكننا والحالة هذه أن نتكلّم بعدُ عن مباهج الحياة الزوجية؟

٦- بل حتى ولو كان الوئام سائدًا بين الشريكين، إلاّ أن الخوف يستحوذ عليهما هنا أيضًا، من أن يأتي الموت، فتتبدّد سعادتَهما، وإن كان بالأحرى هذا ليس خوفًا أو شقاء يُخشى منه فحسب، لأنه ولابد أن يحدث ذلك يومًا ما. وبما أنه عادة لا توافق المنيّة الزوجين في يوم واحد، يبقى أمامها احتمال واحد، وهو أن يتحمّل أحداهما فراق الآخر، وتكون الحياة هنا أقسى بكثير من الموت، سواء أكانت فترة الزواج طويلة أو قصيرة. فكلّما طالت العِشرة كلما عَظم الألم؛ لأن العِشرة الطويلة تجعل الانفصال غير مُحتمل بالمرّة، أمَّا إن حدث هذا بعد فترة قصيرة قبل الأرتواء من الحبّ في غمرة اضطرام الشهوة، فإن المعاناة تكون عندئذ أكثر حدّة. وهكذا يتحمّل الطرفان أحزان متشابِهة، ولو لأسباب متعارضة.

٧- وماذا نقول عن الانفصال الذى يحدث وقتيًا، وعن الأسفار الطويلة، وعن الصراعات التي تلازمها، وعن الأمراض؟- ربما من يعترضني ويقول: «وما علاقة هذا بالزواج؟»- أولاً، من جراء الزواج غالبًا ما تمرض الكثيرات من النساء، وإذ يكنّ ضحيّة للعنف والغضب، يزدن على اضطرابهنّ اضطرابًا، إمّا بالغيظ حينًا وإمّا بالإحباط حينًا آخر. بل حتى ولو لم يُعاملن هكذا، عندما يكون أزاوجهنّ قريبين منهنّ ويغمرونَهنّ بالعناية، إلاّ أن نفورًا قد يحدث بغتة، مّما يجعلهنّ ضحيّة لهذه الآلام من جديد! ومع ذلك فنحن لن نتكلّم عن هذه الأمور كافّة ولن نلوم الزواج في شيء، بل على الأقل يكون فى وسعنا على الأقل أن نأخذ عليه مأخذًا أخيرًا. وما هو؟ هو أن المصير الذي يخبّئه لمن كان في صحة جيدة ليس أفضل حالاً مّما يخبّئه للمريض، فهو يُلقيه في الشدّة عينها، تمامًا كما يفعل بطريح الفراش.

٥٨- في أن الزواج ليس بالأمر العظيم حتى ولو أفلت من كل الضيقات.

١- إن شئت فلْنغضَّ البصر أيضًا عن كلّ هذا، ولنفترض أمرًا من المستحيلات، ألا وهو أن تتوافر كل شروط الهناء في الزواج، من أولاد كثيرون، إلى ثروة، إلى امرأة عفّيفة وجميلة وذْكية، إلى تفاهم، إلى عمر مديد. ولنُضف أيضًا إلى هذا شرف النّسب والجاه والسلطان، ولنَهبْ أن داء الخوف من تقلّبات الدهر والذي نعاني منه جميعًا لن يصيبهم، بل ولنُبعد كل مصدر للحزن وكل ما يسبّب الهمّ والقلق، ولنفترض أن لا يأتي أيّاً من الدوافع الأخرى أو أي موت مبكر ليفصم هذا الرباط الزوجي،

وأن يأتيهما الموت في اليوم عينه، ولأجل اكتمال بَهجهتم أن يبقى أولادهم ليرثوهم وأن يشيعوا أباهم وأمّهم معًا إلى المثوى الأخير بعد شيخوخة مديدة. ما هي النتيجة؟ بل أيّة منفعة يجنونَها من متعة كاملة كهذه حين يمضون إلى هناك؟ ما فائدة أن نترك وراءنا أولادًا عديدين، وأن نَنعم بزوجة جميلة وسط الترّف وكافّة المكاسب التي سبق ذكرها، وأن نبلغ شيخوخة مديدة، بماذا ينفعنا هذا عند مثولنا لدى منبر القضاء للدينونة؟ لا شيء. أليس كل هذا ظلاً ووهمًا؟

٢- إذ كنا لن نستطيع في الأبدية التي تنتظرنا فوق والتي لا نِهاية لها أن ننال منفعة من هذه المكاسب، أو أن ننال منها أيّ تعزية، فأن اقتناءها أو عدمه يستوى لدينا. لنَهب أن إنسانًا لم يأته حلم ممتع إلاّ في ليلة واحدة طيلة ألف عام، فلن تكون له أيّ ميّزة عمّن لَم يتمتّع بِهذه الرؤيا. بل وحتى هذه الكلمات لن تعبر عما أودّ قوله، فكما أن الفرق كبير بين الحلم والحقيقة، هكذا الفرق بين الأرضيات والسمائيات، ما لم نقول إنه أكثر بكثير، ما تكونه ليلة واحدة بالنسبة إلى ألف عام، إنَّها لا تمثّل ما يكونه الدهر الحاضر بالنسبة إلى الدهر الآتي، إذ أن الفرق هنا أيضًا شاسع للغاية. إن هذه الأمور ليست من نصيب العذراء التي تركت بسَعة هذا العالم. ولكن، لنَعدْ إلى كلامنا.

٥٩- في أن البتوليّة سهلة.

العذراء ليست مُلزَمة أن تستعلّم عن عريسها ولا تخشى أن تُخدع في هذا الأمر، إذ أن عريسها هو الله وليس إنسانًا، هو السيّد وليس رفيقًا لها في العبودية. هذا هو الفرق بين العريسين، فانظرْ أيضًا إلى ظروف الاقتران

عندهما. هنا ليس واردًا اقتناء العبيد مثلاً، أو ملكية الأراضى، أو من لديه الكثير من وزنات الذهب، لكن السماوات والخيرات السماوية هي الهدايا المقدَّمة لهذه العروس. أضف على ذلك أن المتزوّجة تخشى الموت فيما تخشاه لأنه يفصلها عن شريكها، أمَّا العذراء فتشتاق للموت لأن الحياة عبء بالنسبة إليها، مّما يجعلها تُسرع إلى رؤية عريسها وجهًا لوجه وإلى التنعّم بِهذا المجد!

٦٠- فى أنه لا حاجة للبتوليّة البتة للأمور التي لا تتوّقف علينا.

١- كما أن فقر العروس لا يمكن أن يكون مُضرًّا بحقها كما في حالة الزواج، بل على العكس من ذلك، إذ أن تلك التي تقاسيه طوعًا تصير به أرفع شأنًا عند عريسها، وقِسْ على ذلك أيضًا ما يختصّ بضعة أصلها أو غياب الجمال الجسدي وسائر الأمور من هذا القبيل. وماذا أقول؟ بل حتى ولو لم تكن حرّة فإن هذا لا يضرّ أيضًا بخطوبتها، يكفيها من ثمّ أن تُظهر جمال نفسها لتحتلّ المراتب الأولى. فهي هنا لا تخشى الغَيرَة ولا تعانى أهوال الحسد تجاه امرأة أخرى تزوّجت من رجل أكثر ذكاءً من رجلها، لأنه ما من عريس يماثل عريسها، أو يعادله، أو يُقاربه حتى ولو قليلاً. أمَّا في الزواج، فحتى ولو كان للمرأة رجل ثريّ للغاية وعظيم الجاه، إلاّ أنّها تستطيع دومًا إيجاد امرأة أخرى تفوقها في هذه الحظوة.

٢- والحال أن اللذة التي نختبرها لتفوّقنا على من هم دوننا شأنًا إنما تقل بشكل واضح عند تفكيرنا بمن يفوقوننا شأنًا، فالترّف البالغ الذي

يستلزم الذهب والثياب والموائد الفاخرة وسائر وسائل الرفاهية يصلح تمامًا لجذْب النفس وإغرائها! وكم من النساء يتمتّعن بمثل هذه الميزات؟ إن معظم الناس يمضون حياتهم في الفقر والشقاء والتجارب، أمَّا وإن حدث وامتلكت بعض النساء ثروات كهذه فهنّ نادرات ومعدودات، ومع ذلك يقاومن مشيئة الله، إذ ليس مُباحًا لأحد أن يعيش وسط هذه الملذّات كما سبق وأوضحنا[1].

٦١- في أن التّحلّي بالذهب يولّد الخوف أكثر مّما يولّد البهجة.

ومع ذلك فلْنَهب أن حياة البذخ هذه مُصرحًا بها، وأن النبي (إشعياء) والرسول بولس كليهما لم يعارضا النساء المتنعِّمات (إش٣:١٦-٢٦، ١تي٢:٩)، فما الذي كسبته إذًا من هذا الذهب الكثير؟ لا شيء سوى مشاعر الغَيرَة والقلق وأقله الخوف، ليس فقط عند إيداعه الخزانة أو عند هبوط الليل فحسب، بل وأيضًا عندما تتزّينّ به في وضح النهار، إذ يعانون القلق عينه إذا يختبرن قلقًا أشدّ قسوة. فقد تكون في الحمّامات العامة، أو في الكنائس نفسها[2] بعضًا من أولئك النسوة اللاتى يسرقنّ أشياءً كهذه، بل، ودون الحديث عن أولئك الشريرات، أحيانًا ما يحدث أن تفقد احداهن حليهنّ في وسط هذا الزحام وهذه الجموع، هكذا نساء عديدات فقدن أشياء كهذه، بل ومجوهرات أكثر ثمنًا بكثير جدًا، سواء أكانت قد

(١) انظُر (الفصل ٥٠، ٥١).

(٢) يقول القديس يوحنا ذهبّي الفم في موضع آخر: «قد لا يُستغرب ربما من أن تشاهد هذه الأمـور في الحمّامـات والساحات العامة، ولكن أليس من السخرية أن تتجاسر امرأة متّزينة بهذا الشكل على تجاوز عتبة الكنيسة؟ لماذا يـأتين ويتظاهرن بغناهنّ في هذا المكان، الذي يُفترض فيهنّ الدخول إلبه ليسمعن بأنه لا يجب عليهنّ التّحلّي، لا بالـذهب ولا باللآلئ ولا بالحللّ الفاخرة» (عظة على العبرانيين ٢٨).

انتُزعت منهنّ أم فَقَدنَها. ولكن، لا بأس، فلْنهب أن هذا الخوف غير موجود وأن هذا القلق بعيد!

٦٢- في أن التّحلّي بالذهب يسيء إلى الجمال بل ويُظهر القبح.

١- تقولين: «إن رجلاً رآني فأسَره الإعجاب بي». لا، إنه لم يُعجب بك بل بزينتك، هذه التي تحطّ من قدر صاحبتها غالبًا كما لو كانت تتجمّل بالعكس! إن كانت المرأة حسنة المنظر فإنَّها تسيء من ثمّ إلى جمالها الطبيعي، لأن كثرة الحُليّ لا تتيح للجمال الطبيعى أن يبدو كما هو، بل أنَّها تُخفي القسم الأكبر منه، وإن كانت على العكس قبيحة المنظر، فعندئذ تُبرز الحُليّ قبحها. فالقبيحة الشكل حيثما وُجدت تبدو على حقيقتها عندما تكون وحدها، أمَّا حين يحوّطها لمعان الجواهر وبَهاء أيّ من المواد الأخرى، فلا تصبح بذلك إلا أكثر قبحًا من أن يُنظر إليها.

٢- ذلك أن الجسد الشاحب يصير أكثر شحوبًا بتألق اللآلىء الموضوعة عليه، والتي تُرسل بريقَها وكأنَّها في الظلام، كما أن العيب المتعذّر إصلاحه في شكل ما، يبرز أيضًا بقبح من خلال الثياب المزركشة التي لا تترك لقَسمَات الوجه أن تواجه وحدها حُكم الناظرين، بل بالقياس إلى هذا الجمال المصطنع المدهش الذي ينجم عنه مع ذلك إخفاق ذريع، فالذهب المنثور على الثياب، وكل ما يمكن عمله في هذا المجال مع سائر الزينات الأخرى، كل ذلك يُشبه وكأن بطلاً مِقدامًا شديد البأس قويًا سيهزم خصمًا تافه، بائس، مُرهقًا من الجوع! وبنفس الطريقة فإن الحُليّ تحقّر من وجه من تتحلّى بِها وتركزّ عليها كلّ الأنظار، ومن ثمّ تصير

بالأكثر صاحبة الوجه هدفًا للسخرية عوض أن تكون محطّ إعجاب.

٦٢- زينة البتوليّة وجمالها.

١ – أمَّا زينة البتوليّة فهي ليست كذلك، إنَّها لا تشوّه من تتزّين بها، إذ أنَّها ليست جسدّية بل روحيّة. فحتى وإن كانت المرأة قبيحة المنظر، إلا أن البتوليّة تأتي لتحوّل هذه القبح وتكسوه بجمال أخّاذ، وإن كانت حسناء تأتي لتُزيد من بَهائها. فليست الجواهر، ولا الذهب، ولا الثياب الفاخرة، ولا الملابس المطرزة، ولا أيّ من هذه الأشياء الزائلة تصلح لتزّين النفوس، بل الأصوام والسهر المقدّس، والوداعة، والتعفّف، والفقر، والشجاعة، والتواضع، والصبر، بالاختصار، احتقار كل الأمور الدنيوّية الحاضرة.

٢ – إن منظر العذراء يشع من الجمال والجاذبية حتى أنه يوقظ الحب لا عند البشر بل عند القوّات غير المتجسدة وعند ربَهم. إنه من الطهارة والنقاء حتى أنه قادر على التأمّل، لا في الجمال الجسدي بل في الجمال الروحي. إنه من السكون والهدوء حتى أنه لا يغضب ولا يثور على من يضطهدون صاحبته ولا من يعذّبونَها بلا انقطاع، بل هو جمال يتأمّلهم بوداعة ورفق.

ذلك هو التواضع الذي تتّسربل به العذراء، حتى أن الفجّار أنفسهم يخجلون من شهواتهم، عندما ينظرون إليها بتدقيق. وكما أن خادمة امرأة متواضعة لا يمكنها ألاّ أن تكون هي أيضًا متواضعة، طوعًا أو كرهًا، هكذا الجسد الذي يواكب نفسًا حكيمة كهذه إنما يكون مُلزمًا بالتحرّك وفق ما يتناغم مع هذه النفس. فالنظر واللسان والهيئة والمشى، وكلّ ذلك يتكيّف

مع النظام الداخلي، وكما أن الطّيب الثمين- وإن كان داخل القارورة- يعبق الهواء برائحته العطرة ويُفعم حبورًا لا في أهل البيت القريبين وحسب، بل ولكافّة الذين في الخارج أيضًا.

٣- هكذا شذا النفس المتبتلة إذ يُشبع نشاطات الحواس كاشفًا عن الفضيلة المخبوءة في الداخل، فارضًا على كافّة الأمور الاتزان الكامل، فاللسان لا تخرج منه كلمة جارحة أو خارجة، والعين لا تعرف الوقاحة، والأذُنَ لا تسمع ما لا يليق من الأغاني؛ بل أن القدمين أيضًا هما محطّ اهتمامها، فما من مشية فيها ميوعة أو رخاوة، بل مشية لا تظاهُر فيها ولا تصنّع. كما أنّها تطرح كل تنّعم في ثيابَها، وتحثّ وجهها دومًا على عدم إرخاء قسماته البتة بالضحك والهزل، بل تبدو بوجه رصين زاهد في كل حين، مستعد للبكاء دومًا، أمّا للضحك فلا مطلقًا.

٦٤- أن ما نعانيه لأجل المسيح يحمل التعزية حتى وإن كان شاقًا.

عندما تسمعني أتكلّم عن البكاء لا تتوهمّ أفكار كئيبة، لأن هذه الدموع إنّما تحمل من التعزية ما لا تستطيع أن تأتي به ولا كل ضحكات هذا العالم. وإن كنت تشكّ في ذلك، فاسمع ما يقوله البشير لوقا بشأن الرسل: **«وأمّا هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع»** (أع٥: ٤١). والحال أن الجَلَدُ لا يأتي بالبهجة والفرح على هذا النحو، بل على العكس إنما يولّد الوجع والألم، ومع ذلك، فما لم يستطيع الجَلَدُ أن يحققه، حقّقه الإيمان بالمسيح، وإذ كان الجَلَدُ لأجل المسيح مصدرًا للمسّرة، فأين العجب يا ترى إذا ما كان ذرف العَبرَات لأجله أيضًا يولّد هذا الأمر عينه؟ ولأجل

ذلك، ما دعاه الرب من قبل الطريق الضيق والكرب، دعاه آنذاك النير الهيّن والحمل الخفيف (مت٧: ١٤، ١١: ٣٠).

لا شك أن البتوليّة حِمل بطبيعتها، بيد أن عزيمة من يمارسونَها والخيرات التي يأملونَها تجعلها في غاية السهولة. وهكذا أناس آثروا الطريق الضيّقة الكربة على الطريق الواسعة الرحبة ليسلكوا فيها بأوفر غَيرَة، لا لأنَّهم لا يعانون فيها المحن البتة، بل لأنَّهم يتجاوزونَها غير متألّمين كما يتألّم الآخرون عادة. ذلك أن هذه الحياة لها هي أيضًا ضيقاتَها، ولكن إن قارنّاها بضيقات الزواج، فهي لا تستحق أن يُطلق عليها اسم ضيقات.

٦٥- في أن تجارب البتوليّة أخف شدّة من آلام المخاض التي تصاحب الزواج.

قلْ لي: هل تعاني العذراء طيلة حياتَها ما تعانيه المتزوّجة كل عام تقريبًا، إذ تمزّقها أوجاع المخاض والتأوّهات؟ هكذا هو طغيان هذا الألم في الواقع حتى أن الكتاب المقدس، عندما أراد أن يصف السبي، أو المجاعة، أو الوباء، أو الآلام الأخرى التي لا تُطاق، سمّاها كلها مخاضًا، وهذا ما قد فرضه الله على المرأة من عقاب ولعنة، أي الولادة بالأتعاب والأوجاع، إذ قال: **«بالوجع تلدين أولادًا»** (تك٣: ١٦). بينما العذراء هي فوق هذه الأوجاع وهذه اللعنة، لأن ذاك الذي أبطل لعنة الناموس قد أبطل معها هذه اللعنة الأخيرة.

٦٦- السير على الأقدام أفضل من ركوب البغال.[١]

١- ولكن الذهاب ركوبًا على البغال في الساحة العامة لأمر غير مُستحب! إن هذا الأمر عديم الجدوى وخالي من كل متعة سوى الإفتخار. فكما أن الظلمة لا تُفضّل على النور، ولا السبي على الحرية، ولا الحاجات الكثيرة على الاكتفاء، هكذا المرأة لا تكون أفضل حالاً في عدم استخدام قدميها في قضاء احتياجاتها، هذا بالطبع دون الحديث عن المضايقات التي تنتج عن ذلك. فغالبًا ما لا تستطيع أن تترك بيتها عندما تريد، إلاّ إذا دفعها إلى الخروج سببًا خطيرًا، بل تكون مُرغَمة على البقاء في البيت، تمامًا كهؤلاء المتسولين المُقعدين الذين ليس من يحملهم. وإذا ما اتّفق لزوجها أن امتلك بغالاً، فهناك الخصام والشجار، أمَّا إن تصرّفت هي كذلك، متجاهلة رجلها ودون حساب للعواقب، فإنَّها تخاصم نفسها عندئذ. كم من الأفضل أن تستخدم قدميها- إذ أن الله قد أعطاها لنا لهذا الغرض- وأن تتفادى من ثمّ كل هذه المضايقات، ولا تعرّض نفسها، لمحبتها للترّف للكثير من دواعي الهمّ والخصام التي لا مفرّ منها! وإن كانت هذه ليست السبب الوحيد الذي يجعل النساء أن يمكثنّ في بيوتَهنّ، بل إن حدث وأصيبت الدّابتان أو إحداهما بألم في قوائمها مثلاً، فالنتيجة هي عينها أيضًا، وإن عَرَض أن أُطلقتا إلى المرعى- وهذا ما يحدث كل سنة ولأيام عديدة- فها هي مُرغمة مجدّدًا على البقاء في البيت كما لو كانت مكبَّلة، بحيث لا تستطيع الخروج من بيتها حتى ولو اضطرّتها إلى ذلك ضرورة

(١) كانت من العادات السائدة في القرن الرابع وكانت احدى علامات الترّف، حتى أن النساء كنّ يسهرن بعناية على أن تكون البغال محلّلة بإفراط ليتفاخرن بذلك، وكن ينتهزن كلّ فرصة لاستعمال هذه الوسيلة في التنقل، تمامًا كما نرى اليوم في استعمال بعض وسائل النقل الحديثة!

مُلحّة.

٢- وإذ ما قيل لي بأنَّها تتخلّص في ذلك من حشد المتطفّلين وأنَّها لا تكون مضطرّة من بعد إلى تحمّل نظرات كل من معارفها، فهذا يعني الجهل في رأيي لما يحمى الطبيعة الأنثوية من الخزي وما يأتي لها بالخزي، فالمسألة ليست في الظهور أمام الملأ أو في الإختباء عنهم، بل في الوقاحة التي لا تحفظ خشوع النفس من جهة، والتعفّف والحياء من الجهة الأخرى. لذلك كثيرات ممّن لم يُرغَمن على هذه الحياة داخل الأسوار يَسِرن مع ذلك في الساحة العامة وسط الجمع، دون أن يثيروا عليهن المشنّعين، بل يجتذبون المُعجبين الكثيرين بتعفّفهنّ. لأن هيئتهنّ، ومشيتهنّ، وبساطة ثيابَهنّ، تعكس تلك الأشعّة الوضّاءة الصادرة عن حكمتهنّ الداخلية، في حين أن كثيرات ممّن يمكثن في بيوتَهنّ قد تسبّبن لأنفسهن في السمعة الرديئة، إذ يمكن للمرأة الجالسة في بيتها أن تبدو على قدر كبير من الوقاحة والسفاهة لمريديها، بأكثر سهولة ممّن يظهرن خارجًا.

٦٧- في أنه أمر متعب اقتناء خادمات كثيرات.

ربما يكون اقتناء جمع من الخادمات أمرًا مُستحبًا. ولكن ما من شيء أسوأ من هذه المتعة في الواقع، فالهموم تتضاعف بمقدار ما يزداد هذا الجمع. فهناك ما يدعو إلى الهمّ والغمّ بالطبع عند مرض أو موت أيّ منهنّ، إلاّ أن هذه الأمور قد تُحتمل كغيرها من الأتعاب أيضًا، نظير ذلك التعب الذي تبذله كلّ يوم في التوبيخ على كسلهنّ، وفي زجر إساءاتَهنّ، وفض مشاجراتَهنّ، وإصلاح عيوبِهنّ الأخرى كافّة. والشيء الأكثر تعبًا- وهذا ما يحدث خاصة عندما يكون هذا العدد الكبير في الخدمة هو أن

تُوجد وسط هؤلاء الجوارى جارية لطيفة، وهذا أمر لا مفرّ من حدوثه، إذ أن الأغنياء لا يهتمون بالعدد فقط، بل يطلّبون أيضًا أن يكنّ حسنات المنظر! وعندما تتميّز إحداهنّ من ثمّ عن الأُخريات، سواء سَحرت لبَّ سيّدها أم نالت إعجابه لا أكثر، فعندئذ كم يكون الألم بالنسبة إلى سيدة البيت التي ترى أن امرأة أخرى قد فُضّلت عليها، إن لم يكن على صعيد المحبة على الأقل على صعيد الجمال الجسدي، وعلى ذلك عندما تكون المكاسب المأثورة والمُشتهاة في الزواج مصحوبة بضيقات كهذه، فماذا يُقال إذا عن أتعابه؟

٦٨- في سكون النفس المُلازم للبتوليّة.

١- أمَّا العذراء فليس لها أن تتحمّل أيّاً من هذه الأمور، إذ لا اضطراب البتة في مسكنها المتواضع ولا مجال للصراخ في حضرتها. وكما لو في ميناء أمين هكذا يسود الهدوء في داخلها، بل وما هو أفضل أيضًا من الهدوء، أعني سكون نفسها. ذلك أنَّها لا تركّز نشاطها على أيّ من الأمور البشرية، وإنّما تتكلّم مع الله بلا انقطاع شاخصة إليه. فمن يستطيع إذًا أن يدرك متعة كهذه؟ وأيّ كلام يمكنه التعبير عن تلك البهجة التي تنعمَّ بها نفس أفرزت نفسها لهذا؟ لا أحد. فالذين يستلذون بالرب وحدهم يعرفون عظمة هذه اللذّة وكيف أن كلّ مقارنة تكون عاجزة عن وصفها.

٢- مع أن رؤية المال الكثير تُغري الأبصار بقوة في كل مكان، ولكن كم أحري بنا التأمل في السماء، لنجتني منها متعة أكثر من ذلك بكثير! فكما أن الذهب يفوق القصدير والرصاص قيمة، هكذا السماء تفوق الذهب والفضة وكلّ مادة أخرى من حيث البهاء والجلال. هذه المشاهدة

خالية من الهمّ، أمّا الأخرى فمصحوبة بالقلق الذي يكون له أشقّ الأثر دومًا على رغباتنا. ولكن، ألاّ تريد أنت النظر إلى السماء؟ إنك قادر على رؤية المال المعروض في الساحة العامة وحسب- **«لتخجيلكم أقول هذا»** (**١كو٦:٥**) بحسب الطوباويّ بولس- مادمت تُذكى حب المال فيك إلى هذا الحدّ من الجنون. وهنا، لا أعلم ما الذي ينبغي قوله، فإني أجد نفسي في حيرة شديدة، ولا يمكنني أن أفهم كيف أن معظم البشر، حينما تُعرض عليهم السعادة في الطمأنينة وراحة البال، لا يَرون في ذلك متعة حق، بل يجعلون كل متعتهم في الهمّ والصراع والقلق!

٣- لماذا لا يُغويهم المال المعروض في الساحة العامة كما يُغويهم المال الذي فى بيوتَهم؟ مع أنه أكثر بريقًا والنفس تكون حرّة من كل قلق تجاهه- تقول: «لأن هذا المال ليس لي وأمَّا الآخر فلي»- إذًا هو الجشع الذي يولّد المتعة وليست طبيعة المال، وإلاّ كنت قد وجدت في المال الآخر إغراء مماثلاً. وإن تعلّلت بالمنفعة في اقتناء الفضة ترى أن الزجاج أفضل منها بكثير كما يقول لك الأغنياء أنفسهم، والذين غالبًا ما يستخدمون هذه المادة في صناعة كؤوسهم. أمّا إن اتفق وأرغمتهم كبرياؤهم على استخدام الفضة أيضًا، فإنَّهم يضعون الزجاج في الداخل أولاً، ويغطّونه بالفضة من الخارج فقط. وهذا مّما يدّل على أن الزجاج هو المستَحبّ والملائم للشرب وأن الفضة لمجرّد المظاهر والتفاخر لا أكثر. ثّم ماذا يعنى هنا قولك: هذا لي وهذا ليس لي؟ إني لا أجد في ذلك سوى كلمات.

٤- كثيرون قد رأوا أموالهم تَهرب من بين أيديهم، في حياتَهم، دون أن يستطيعوا الاحتفاظ بِها، أمَّا من احتفظوا بِها حتى المنتهى فقد حُرموا

من التمتّع بِها، طوعًا أو كرهًا. وهذا لا يقتصر فقط على الذهب والفضة وحسب، بل أيضًا فيما يتعلّق بالحمّامات والحدائق وكل ما يوجد في بيوتهم أيضًا، حتى أن عبارة «هذا لي، وهذا ليس لي» لا تبدو بعدُ إلاّ كلمة لا غير. ذلك لأن استخدام هذه المقتنيات صار مشترك عند الجميع، بيد أن الاهتمام بِها هو ما يميّز من يزعمون ملكيتها عن سواهم. فالأخيرون إنّما يكتفون بالتمتّع بِها، أمَّا الأوُّلون، فمع كل تعبهم، لا يحصّلون سوى تلك العاقبة عينها التي نالها أولئك بدون أيّ تعب.

٦٩- في أن المآدب الفاخرة تُسبّب همومًا كثيرة.

١- وإن تعجب أحد إزاء هذا الإفراط في الترف، من وفرة اللحوم، والتوابل النادرة، وما يتفنّن في تقديمه الخدم والطباخين، فلْيَعلمْ هذا جيدًا أن الأغنياء لا يكونون أفضل حالاً من طبّاخيهم- فكما يخشى هؤلاء أسيادَهم، كذلك يخشى هؤلاءِ مدعوّيهم، إذ يخافون من أن يكون لهؤلاء مأخذ ما، في هذه الولائم المُعدّة لهم بكثير من التعب والإنفاق. إنَّهم يماثلون خدَمهم في هذه الحالة، بيد أن هؤلاء يختلفون عنهم كثيرًا من جهة أخرى، وذلك لأن الداعين إلى هذه الولائم لا يخشون الانتقاد وحسب بل والحسد أيضًا. فغالبًا ما يحدث بعد مآدب مماثلة أن تتولّد عند الكثيرين تلك الغَيرَة التي لا تنتهي، إلاّ بعد أن تجلب عليهم أقصى المخاطر، ذلك أن الاستلام للإفراط غالبًا ما يكون مستحبًّا جدًا بالنسبة إليهم، أمَّا بالنسبة إلينا فحاشا!

٢- وحبن تنتج عن حياة الملذّات. هذه أوجاع الرأس، وانتفاخ البطن، وضيق التنفس، والدّوار، واضطرابات النظر، وغيرها من الانفعالات

الأخرى غير العادية، فأىَ متعة إذًا نستمدها من تلك الحياة؟ إذا ما اقتصرت هذه المفاسد وعواقبها يومًا عن مثل هذه الضيقات، إذ أنَّها تتسبّب فعلاً بتلك الأمراض التي يعسر علاجها، كالنِّقرس والصّرع والفالج والتشنّجات التي تُحدق بالجسد حتى النفس الأخير، فأىَ متعة إذًا يمكننا ذِكرها مقابل كل هذه الأضرّار؟ بل وأىَ تقشف لا نقبل به لتجنّبها؟

٧٠- في أن التقشف أكثر نفعًا ومتعة من حياة الملذّات.

١ - أمَّا الزهد في المأكل فليس هكذا، إذ هو أبعد من أن يأتي بالضرّر إذ أنه الأساس للصحة والارتياح، وسوف تجد أنه أفضل من التلذّذ نفسه. إذ أنه يُتيح للمرء أن يكون بصحة جيدة، وأن لا يُلمّ به أىَ من هذه الأوجاع التي يكفي أحدهم للنّيل من كل متعة مُقتلعًا إيّاها من الجذور، وثانيًا بسبب الطعام نفسه. كيف هذا؟ لأن الشهوة هي علّة اللذة، والشهوة لا تنشأ عن الشبع أو امتلاء البطن بل عن الحاجة والحرمان، وهذا الحرمان لا وجود له في مآدب الأغنياء، إنما هو حاضر دومًا على موائد الفقراء [من قلة الطعام] ليسكب على الأطعمة حلاوة المذاق اللذيذ، بل وأفضل من ما يقوم به رؤساء الخَدَم والطّباخين كافّة. فالأغنياء يأكلون عن غير جوع، ويشربون عن غير عطش، وينامون قبل أن يشعروا بوطأة النعاس الملحّ، في حين أن الفقراء يعانون من هذه الحاجات كلها قبل إشباعها، وهذا ما يزيد في متعتهم هنا أكثر من أي شيء آخر.

٢ - قلْ لي: لمَ يؤكّد سليمان نفسه متعة نوم العبد قائلاً: **«نوم المُشتغل حلو، إن أكل قليلاً أو كثيرًا» (جا٥:١١)**؟ هل بسبب نعومة فراشه؟ ولكنهم ينامون على الأرض أو على القشّ في أغلب الأحيان. هل لأن حياتَهم

سهلة إذًا؟ أبدًا، بل أنَّها ليست سوى سلسلة من المتاعب والبلايا المتواصلة. فما هو إذًا الشيء الذي يجعل نومهم لذيذًا هكذا؟ أنَّها الأتعاب وما يقاسونه من الحاجة إليه قبل أن يستسلموا له. أمَّا الأغنياء، فإن لم يضبطهم الليل منغمسين في النشوة، فلن يستطيعوا النوم ولو للحظة واحدة، بل يتقلّبون ويتململون بلا انقطاع مستلقين على فراشهم الناعمة.

٧١- في أن حياة التلذّذ ضارة للنفس.

من السهل علينا أيضًا إبراز مساوىء التلذذ وما ينتج عنها، معدّدين الأمراض التي تصيب النفس، والتي هي أكثر عددًا وأكبر إيلامًا بكثير من أمراض الجسد. كالرخاوة، والسفاهة، والغرور، والفجور، والعنف، والنهَم، والفظاظة، والجشع، والعجز تجاه الأمور النافعة الضرورية كافّة، وهي نتائج معاكسة تمامًا لنتائج التقشف- ولكنني أُسرع الآن لأتطرق لنقطة أخرى، مُقتصرًا فيها على إضافة هذه الملاحظة قبل أن أعود إلى كلمات الرسول مجدّدًا، فأقول: إذا ما كانت الأمور التي نشتهيها تصل إلى هذا الحدّ من السيئات، وتعرّض النفس والجسد كليهما لطوفان من الأمراض كهذا، فماذا يُقال إذًا في البلايا الحقيقية؟ كالخوف من الحكام، والانتفاضات الشعبية، ومؤامرات الوشاة، والبلايا التي تحاصر الأغنياء خصوصًا، والتي تنال النساء منها نصيبًا أوفر بالضرورة، كونَهنّ لا يملكن الشجاعة الكافية لتحمّل هذا النوع من تقلّبات الدهر.

٧٢- في أن حياة الملذّات تؤدي إلى ما لا يُحتمل من التقلّبات بالإضافة إلى السيئات الأخرى.

ولماذا الحديث عن النساء؟ إذ قد يكون الرجال أنفسهم ضحايا لهذه

البلايا. فالذي يحيا وهو قانع بما لديه لا يخشى من تقلّبات الدهر، أمَّا من أَنهكه العيش في الملذّات والفجور، ثم ألّمت به نكبة أو كارثة فوجد نفسه غارقًا في العوز، فهذا يموت قبل أن يقنع بهذا التحوّل الذي لم يكن مهيَّأً له ولا معتادًا عليه، لأجل هذا قال الطوباويّ بولس: **«ولكن مثل هؤلاء يكون لهم ضيق في الجسد. وأمّا أنا فإني أُشفق عليهم»** (١كو٧:٢٨)، ثم أضاف قائلاً: **«الوقت منذ الآن مُقصرّ»** (١كو٧:٢٩).

٧٣- في أن الزمان الحاضر ليس زمانَ زواج.

١ - رُبّ من يعترضني هنا قائلاً: «وما علاقة هذا بالزواج؟»- هناك علاقة وثيقة أكيدًا. فطالما أن الزواج لا يتجاوز حدود الحياة الحاضرة، وأن في الحياة الأخرى لا يزوّجون ولا يتزوّجون، وأن الزمان الحاضر قد أشرف على الانتهاء وصار يوم القيامة على الأبواب، فليس الزمان إذًا زمان مباهج، بل هو زمان سلوك واعتناق لكل حكمة أخرى لمنفعتنا هناك. أنه في ذلك مثل الفتاة التي تعيش في البيت مع أمها، تراها تَهتم اهتمامًا بالغًا بكافّة حاجيات طفوليّتها وتضعها في خزانتها وتحفظها باهتمام شديد، إذ تجد في ذلك كلّ متعتها وتكون دائبة الاهتمام بهذه الألعاب اهتمامًا يكفي للاهتمام ببيوت عظيمة. وحين تتم خطوبتها ويُلزمها الزواج من ثمّ بمغادرة البيت، فعليها عندئذ أن تتخلّى عن هذه الأشياء التافهة من أجل الاهتمام بإدراة بيت واحتياجات عدد من الخدَم، فضلاً عن الاعتناء بزوج مع سائر الاهتمامات العديدة الأخرى الأكثر أهمية أيضًا من تلك. هكذا يجب علينا التصرّف نحن أيضًا، فبما أن قد بلغنا النضج اللائق بالبالغين، فعلينا من ثمّ أن نتخلّى عن كل خيرات الأرض التي هي في الحقيقة ألعاب أطفال، وأن

نتوجّه بأفكارنا نحو السماء وبَهاء السماويّات وكلّ مجدها.

٢- فلقد ارتبطنا نحن أيضًا بعريس يطلّب منّا حبّاً كهذا، إن نضحّي لأجله لا بالأرضيات وهذه الأمور التافهة التي لا قيمة لها وحسب، بل بذواتنا أيضًا إن دعت الحاجة. لكي نتحرّر من هذا الاهتمام الباطل طالما أننا مُلزمون بترك هذا المسكن لأجل المسكن الآخر، إذ لو وجّب علينا استبدال مسكن حقير ببلاط ملكي لما اهتممنا من بعدُ بتلك التحف الخزفيّة والخشبية والأثاث وسائر الأشياء التي بلا قيمة الموجودة في هذا المسكن. إذاً فلا نبالي بعد الآن أيضًا بما على الأرض، لأن الزمان الذي يدعونا إلى السماء قد أتى، حسبما صرّح الطوباويّ بولس في رسالته إلى أهل رومية قائلاً: «**فإن خلاصنا الآن أقرب ممّا كان حين آمنا. قد تناهى الليل وتقارب النهار**» (رو١٣: ١١و١٢)، وفي موضع آخر أيضًا: «**الوقت منذ الآن مقصر، لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم**» (١كو٧: ٢٩).

٣- إذاً ما نفع الزواج لمن لا ينبغي عليهم الانتفاع به ولمن سيكونون كمن لا نساء لهم؟ ما نفع الثروات، والممتلكات، وخيرات الأرض، طالما أن استخدامها غير مناسب من بعدُ وفي غير محلّه؟ فإن كان المتّهمون المُلزمون بالمثول أمام المحاكم ليدافعوا فيها عن ذنوبهم لا يفكّرون من بعد لا في نسائهم، ولا في الطعام أو الشراب، ولا في أيّ اهتمام آخر عند اقتراب يوم القضاء، بل في دفاعهم وحسب، فكم ينبغي علينًا أيضًا بالأكثر- نحن الملزَمين بالمثول لا أمام محكمة أرضية بل أمام المنبر السماوي لنعطى حسابًا عن أقوالنا وأفعالنا وأفكارنا- أن نغضّ البصر عن كل شيء، عن الفرح وعن الحزن اللذين قد تسبّبهما لنا أمور هذا العالم وأن لا نتذكّر

سوى ذلك اليوم المخوف!

لقد قال الرب: **«إن كان أحد يأتي إليّ ولا يُبغض أباه وأمّه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته، حتى نفسه أيضًا، فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا. ومن لا يحمل صليبه ويأتي ورائي فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا»** (لو١٤: ٢٦و٢٧).

٤– أمَّا أنت فتلبث منشغِلاً بَهوى امرأة، ولهو، ورخاوة وترف! **«الرب قريب»** (في٤: ٥)، والمقتنَيات هي محطّ همومك واهتمامك! **«قد اقترب ملكوت السماوات»** (مت٤: ١٧)، ولكنك أنت لا تحلم إلاّ بالمسكن والترّف وسائر الملذّات! **«هيئة هذا العالم تزول»** (١كو٧: ٣١)، فلماذا تعذّب نفسك إذًا بأمور هذا العالم الزائلة، في حين أنك تتغاضى عن تلك التي تبقى وتدوم؟ المسألة ليست مسألة زواج، أو ولادة، أو لذّة، أو وصال، أو إسراف في المقتنيات وإدارة الثروات، أو طعام ولباس، أو فلاحة ومِلاحة، أو تجارة وبناء، أو مدن وبيوت، بل هي مسألة وضع جديد وحياة من نوع آخر، فسوف تتبدّد هذه الأشياء كلها سريعًا، وهذا ما يفسِّر تمامًا معنى العبارة القائلة: «هيئة هذا العالم تزول». فلماذا نُبدى إذًا تَهورًا كهذا، بالإهتمام بما ينبغي علينا الانفصال عنه غالبًا قبل المساء، كما لو كنّا سنبقى على هذه الأرض إلى الأبد؟ لماذا نفضل لأنفسنا حياة الشقّاء والمسيح يدعونا إلى حياة بلا شقّاء؟ يقول: **«فأريد أن تكونوا بلا همّ غير المتزوج يهتم في ما للرب»** (١كو٧: ٣٢).

٧٤- في أنه كيف أن الله يريد أن نكون بلا همّ وهو يدعونا إلى ما نهتم به؟

١- كيف يريد الله أن نكون بلا همّ إن عاد فوضع علينا همّاً آخر؟- إن ذاك ليس همّاً، تمامًا كما أن التألّم لأجل المسيح ليس تألّمًا، ليس لأن طبيعة الأمور قد تغيّرت، بل لأن من يتحمّلون هذه الآلام بفرح إنما ينتصرون على الطبيعة نفسها. أمّا من يهتم بالأمور التي لا تدوم متعتها، والتي غالبًا ما تكون بلا متعة، فهذا ما يسمّى همّاً بالحقيقة، أمّا الذي سيحصد من همومه على مكاسب تعوّض عنها بسخاء، فأقول بأن هذا من العدل تمامًا تصنيفه في عداد الذين لا همّ لهم. أضف إلى ذلك الاختلاف بين الهمّين هو بهذا المقدار، لأن الثاني لا يسمىّ همّاً من بعدُ إذا ما قورن بالأول، إذ أنه أَخفّ قسوة بكثيرٍ من الآخر وأكثر سهولة منه على كافّة المجالات. كلّ هذا قد أثبتناه سابقًا في القول بأن **«غير المتزوج يهتم في ما للرب...وأمّا المتزوّج فيهتم في ما للعالم»** (**١كو٧: ٣٣**)، فالعالم يزول، أمّا الله فدائم.

٢- أليس هذا السبب كافيًا وحده لإقامة الدليل على سموّ البتوليّة؟ إذ كما يسموّ الله على العالم هكذا يسموّ هذا الاهتمام على سواه من الاهتمامات- كيف يمكنك إذاً أن تسمح لنا بالزواج الذي يشدّنا إلى الهموم ويُقصينا عن الروحيات؟- لأجل هذا صرّح الرسول قائلاً: **«لكي يكونون الذين لهم نساء كأن ليس لهم»** (**١كو٧: ٢٩**)، لكن الذين تقيدّوا أو هم مزمِعون على هذا الأمر، عليهم أن يخفّفوا من شدّة رباطهم ما استطاعوا. وبما أنك لا تستطيع حلّ هذا الرباط لأنك التزمت به، فاجعله

أيسر حالاً على الأقل. لأننا قادرون، إن أردنا، على طرح كل الأمور غير الضرورية، وعدم الإضافة إلى الهموم الناتجة عن طبيعة الزواج همومًا أخرى تكون أكثر خطورة أيضًا بداعي فتورنا.

٧٥- في أنه كيف يمكن للمرء أن تكون له امرأة و كأنه ليس له؟

١- إن أراد أحد ما التعرّف بجلاء أكبر على معنى هذا القول: «أن يكون للمرء امرأة وكأنه بلا امرأة»، فلْيتذكّر إذًا حياة أولئك «المصلوبين» (غلا٦:١٤) الذين لا نساء لهم. وكيف يسير هؤلاء يا ترى؟ إنَّهم غير ملزَمين باقتناء حشد من الخادمات، أو مجوهرات ذهبية وقلائد، أو بيوت فاخرة فسيحة وأراضٍ شاسعة، بل إذ ينقطعون عن هذه المقتنيات كلّها، لا يهتمّون من بعدُ إلاّ للباسهم الوحيد ولقوْتهم. كذلك يمكن لمن له امرأة أن يصل هو أيضًا إلى هذه الحكمة، لأن العبارة المذكورة سابقًا والقائلة: **«لا يسلُب أحدكم الآخر»** (١كو٧:٥) إنما تتعلّق بالعلاقات الجسدية وحسب. هنا يأمر الرسول الزوجين بطاعة متبادلة ولا يسمح لأي منهما أن يكون سيّدًا لنفسه، أمَّا من حيث مُمارسة القواعد الأخرى للحكمة، المختصّة بالثياب ونَهج الحياة وكافّة الأمور الباقية، فليس لأي منهما أن يؤدي حسابًا للآخر، إذ يُسمح للأزواج حتى ولو حدث ذلك خلافًا لرغبة زوجاتهم أن يستغنوا عن كل ترّف وعن المتاعب الكثيرة التي تصاحبه، كذلك الأمر بالنسبة للزوجة التي لا يجوز إلزامها قسْرًا. بزينات المجد الباطل والاهتمامات غير الضروريّة، وهذا حقّ. لأن الشهوة غريزة طبيعية يجب هنا أن تُؤخذ بحَلِم بالغ، حتى أن أيّاً من الزوجين لا يستطيع أن يَحرم

الآخر من حقوقه قَسْرًا، أمَّا الرغبة في الترّف والرفاهية غير المُجدية والاهتمام غير النافع فليس لها أصلاً من الطبيعة، بل هي نتيجة التواني والكبرياء المفرط. لأجل ذلك لم يُلزم الرسول الزوجين بالخضوع المتبادل في هذه الحالة كما في تلك.

٢- إذًا، ما يعنيه بقوله: «أن يكون للمرء امرأة وكأنه بلا امرأة» هو رفض الاهتمامات غير النافعة التي تسبّبها نزوات النساء ورخاوتَهنّ، لأن ما يتوجب على المرء تجاه شريكته إنما هو خلاص نفسها فقط، لا إسعادها أرضيًا فقد نذرت لكي تحيّا بحكمة وبساطة. أمَّا وأن تكون هذه فكرة الرسول فهذا ما تكشفه لنا بقيّة كلامه إذا يقول: **«والذين يبكون كأنّهم لا يبكون، والذين يفرحون بثروتَهم[1] كأنّهم لا يفرحون»** (**١كو٧: ٣٠**)، ذلك أن من لا يفرحون بثروتَهم لا يهتمّون لها، ومن لا يبكون لعدم وجودها لا يمكنهم أن يشكوا من الفقر أو أن ينَفروا من الزهد. وهذا هو معنى أن يكون للمرء امرأته وكأنه بلا امرأة، وأن يستعمل هذا العالم دون تطرّف في استعماله.

٣- أمَّا المتزوّج فيهتمّ فيما للعالم. وهكذا، فطالما أن المسألة اهتمام في كلتا الحالتين، فلو كان اهتمامًا باطلاً، عديم الجدوى، سيكون مصدر للأسى في هذه الحالة- لأنه يقول: **«مثل هؤلاء يكون لهم ضيق في الجسد»** (**١كو٧:٢٨**)- وإن كان مصدرًا للخيرات التي يتعذّر وصفها، فلماذا إذًا لا نفضل هذا الاهتمام الأخير الذي لا يمنحنا المكافآت العظيمة وحسب، بل والذي هو بطبيعته أخف قسوة بكثير من ذاك؟ إذ بم تَهتمّ، تلك التي ليست

(١) كلمة «ثروتَهم» لا وجود لها في نص القديس بولس.

بمتزوّجة؟ أبالمقتنيات، أو بالخَدمَ، أو بالمدبّرين، أو بالممتلكات وما شابه ذلك؟ هل لها أن تلاحظ الطبّاخين والنسّاجين وسائر الخَدَم؟ حاشا! فأيًا من هذه الأمور لا يمسّ ذهنها، بل ليس لديها سوى اهتمام واحد، ألا وهو بنيان نفسها وتزيين هذا الهيكل المقدّس، لا بالضفائر أو الذهب واللآلى، ولا بالمساحيق ومستحضرات التجميل، ولا بسائر المتاعب والمصائب، بل بقداسة الجسد والروح.

٤- في حين أن الرسول يقول بحكمة بالغة: **«المتزوجة فتهتم في ما للعالم، كيف ترضى رجلها»** (**١كو٧: ٣٤**)، فهو لا يأتي على التدقيق في المسائل بحدّ ذاتَها، كما ولا يقول شيئًا عمّا تكابده النساء في أجسادهنّ ونفوسهن إرضاء منهنّ لرجالهنّ- هذا الجسد الذي يسيئن إليه ويحقّرنه ويؤلمنه أيضًا بعذابات أخرى، وهذه النفس التي يُفسحن أمامها السبيل إلى العبودية والتملّق والاهتمامات التي لا جدوى منها ولا نفع- بل بكلمة واحدة قد أوحى إلى كل هذه الأمور، تاركًا التدقيق فيها لوعي سامعيه. فبعد أن أظهر سموّ البتوليّة، رافعًا إيّاها إلى السماء بعينها، عاد فتكلّم عن السماح بالزواج مجددًا كما نرى، وذلك لخشيته الدائمة من أن تُحسب البتوليّة وكأنَّها وصية مُلزمة، ولم يكتف بحثّه السابق بل بعد أن قال: **«ليس عندي أمر من الرب»**، ثم **«إن تزوجت العذراء لم تخطئ»** (**١كو٧: ٢٥، ٢٨**)، أضاف قائلاً: **«هذا أقوله لخيركم، ليس لكي أُلقى عليكم وهقًا»** (**١كو٧: ٣٥**).

٧٦- ليست البتوليّة هي المقصود بالوَهَق بل فقدان غَيرَتنا.

١- من حق السامع هنا أن يحتار. فبعد أن قال عن البتوليّة قبل قليل

أَنَّها تحرّر المرء من كافّة القيود، ونصح بِها لمنفعتنا، ولكي نتجنّب الضيقات، ولكي نكون بلا همّ، وبعد أن سعى بكل السبل فأظهر لنا كم أَنَّها خفيفة وسهلة الحَمْل، يتعلّل هنا بقوله: «[أقول ذلك] ليس لكي أُلقى عليكم وَهَقًا؟» ماذا يعني بقوله؟ هل يدعو البتوليّة وَهَقًا- حاشا!- بل الوهق هو أن يتم اختيار هذا الخير تحت الضغط والإكراه. (**١كو٧:٣٧**)، وهذا حق. لأن كل ما يُقبل به كرهًا وقسرًا لا يُحتمل من بعد حتمًا- حتى وأن كان هيّنًا- لأنه يخنق النفس أفظع مّما لو كان ذلك بَحبْل. ولذلك فإن قوله: «ليس لكي أُلقى عليكم وهقًا» يعني أن كل خيرات البتوليّة عدّدتَها وكشفتها لكم، ولكني بعد كل ذلك أترك لكم حرية الإختيار، لأنني لا أريد أن أقودكم إلى الفضيلة رغمًا عنكم. فالنصائح التي أسديتها لكم لم تكن لإرهاقكم، بل كل ما أردته هو أن لا يتأذّى اجتهادكم في الرب بأمر من أمور العالم.

٢- ليت هنا تلاحظ أيضًا حكمة الرسول بولس، انظُر كيف يقرن من جديد حثّه على الدعوة مجدّدًا بحيث تنسل المشورة من خلف السماح. ففي قوله: «إني لا أُرغمكم، بل انصحكم»، يُضيف قائلاً: «لابتغاء ما يليق، وما يربطكم بالرب» (**انظُر ١كو٧:٣٥**)، أظهر أنه يوجد ما يدعو للإعجاب بالبتوليّة والخير الذى نجنيه منها في حياتنا بحسب الله. إذ أنه من المستحيل على المرأة المرتبكة بأمور العالم والمرهقة بكل الاهتمامات الباطلة أن تكون مرتبطة هكذا، إذ تكون «منقسمة» بين أمور شتى في كل نشاطها وكل أوقاتها، أعني بين ما يختصّ بزوجها وبيتها، إضافة إلى كل ما يأتى به الزواج عادة في إثره.

٧٧- في أن المهتمة بالأمور الزمنية لا تستطيع أن تكون عذراء.

ماذا يقول فيما لو تعهّدت العذراء الاهتمامات الزمنية والمشاغَل الكثيرة هي أيضًا، لا سمح الله، ألا يُقصيها هذا من قطيع العذارى؟- إن عدم الزواج لا يكفى (العذراء) لكى تكون عذراء، بل يلزمها أيضًا بتوليّة النفس، إذ أن البتوليّة لا تعنى أن تكون بلا رغبة سيئة أو بلا زينة أو بعيدة عن الاهتمامات غير النافعة وحسب، بل أن تكون نقيّة أيضًا من كل اهتمام أرضي. وإلاّ، فما فائدة طهارة الجسد؟ فكما أنه ما من شيء أكثر خزيًا من أن يُلقى الجندي سلاحه ليمضى وقته في الحانات، هكذا فإنه لا توجد حماقة أسوأ من أن تنهمك العذارى في الاهتمامات الزائلة. هكذا كانت المصابيح مع العذارى الخمس (الجاهلات) اللاتى كنّ يمارسنّ البتوليّة (**مت٢٥: ١-١٢**)، غير أنَّهنّ لم يحصدن من ذلك نفعًا قطّ، بل أن الأبواب أُغلقت في وجوههنّ فلبثن خارجًا وهلكنّ. فما يجعل البتوليّة جميلة للغاية إنما هو أنَّها تقطع كل فرصة للأهتمام الباطل وتفسح المجال كاملاً للأعمال التي بحسب الله، وإلاّ لكانت أدنى مرتبة بكثير من الزواج، إذ تغطىّ الأشواك النفس في هذه الحالة وتخنق الزرع الطاهر السماوي.

٧٨- في أنه لماذا لم يهاجم الرسول بولس بشدّة ذاك الذي يظن أنه يعمل بدون لياقة نحو عذرائه.

١- يقول الرسول: «**إن كان أحد يظن أنه يعمل بدون لياقة نحو عذرائه إذ تجاوزت الوقت. وهكذا لزم أن يصير، فليفعل ما يريد، إنه لا يخطئ فليتزوجا**» (**١كو٧: ٣٦**). ماذا تقول: «فلْيفعل ما يريد؟» أتسمح بالزواج بدلاً من أن

تصحح هذا الاعتقاد الخاطئ؟ لماذا لم تقل هكذا: «إن كان أحد يظن أنه يعمل بدون لياقة نحو عذرائه فهو شقي وبائس»، لماذا لم ينصحه بالتخلّص من هذا الحُكم المسبق وبإبعاد ابنته عن الزواج؟ فيقول: «لأن مثل هذه النفوس تنتمي إلى الضعفاء المنهمكين بعد في الأرضيات، ومن كانت لديهم مثل هذه الاستعدادات يستحيل أن ترفعهم دفعة واحدة إلى البتوليّة». فالذي يهتم بأمور العالم ويُعجب بالحياة الحاضرة إلى هذا الحدّ، كيف يمكنه أن يتقبّل نصحًا يدعوه إلى ما يعتبره هو أمرًا معيبًا، بعد كل هذا الحثّ، في حين أنّها حالة تستحق السماوات وتضاهي الحياة الملائكية؟ وما العجيب في أن يتصرّف الرسول بولس على هذا النحو بصدد أمرًا مُباحًا، طالما أنه يتّبع الطريقة عينها كما لموضوع مخالف للناموس؟

٢ - فعلى سبيل المثال التمييزّ ما بين الأطعمة مثلاً (رو١٤: ٢)، للقبول بعضها ولرفض البعض الآخر، هذا كان ضعفًا يهوديًا، وقد كان بين المؤمنين من أهل رومية من قد أصابَهم هذا الضعف أيضًا. ولكن الرسول بولس لم يكتفِ بعدم الحكم عليهم بقسوة وحسب، بل فعل ما هو أفضل من ذلك، إذ قد تغاضى عن المذنبين (الضعفاء) وانتقد من كانوا يحاولون منعهم قائلاً: **«أمّا أنت، فلماذا تدين أخاك»** (رو١٤: ١٠)؟ ولكنّه تصرّف على نحو مختلف تماما عند كتابته إلى الكولوسيين. فلقد وبخهم بجرأة بالغة بهذه الأقوال: **«فلا يحكم عليكم أحد في أكل وشرب»** (كو٢: ١٦)، وأيضًا: **«إن كنتم قد مُتم في[1] المسيح عن أركان العالم، فلماذا كأنكم عائشون في العالم؟**

(١) هنا نجد فارقين اثنين في نص القديس بولس، الا وهما: «مع المسيح» بدلاً من «في المسيح»، «وتُفرض عليكم فرائض» بدلاً من «تأمرون بِهذه الفرائض».

تأمرون بِهذه الفرائض: لا تمسَّ! ولا تذق! ولا تجسَّ! التي هي جميعها للفناء في الاستعمال، حسب وصايا وتعاليم الناس» (**كو٢: ٢٠-٢٢**).

٣- لماذا تصرف هكذا؟ لأن هؤلاء كانوا قد صاروا أقوياء روحيًا (**رو١٤: ١،١٥: ١**)، بينما أهل رومية كانوا بحاجة بعدُ إلى تساهلٍ كبير. فكان يصبر عليهم ريثما يتأصّل الإيمان بقوة في نفوسهم أولاً، ولئلا يقتلع بذور التعليم الصحيح من جذورها فيهم عند سعيه إلى اقتلاع الزوان سريعًا وقبل الأوان (**انظُر مت١٣: ٢٩**). ولهذا لم يوبّخهم بقسوة، كما ولم يتركهم بدون تحذير، بل وبخهم، ولكن بطريقة مستترة دون أن يشعروا، وفي توبيخ موجّه ضد آخرين. إذ قال **«هو لمولاه يثبت أو يسقط»** (**رو١٤: ٤**) هنا يظهر وكأنه يُفحم المُنتقد لأخيه، ولكن في الواقع كان كلامه موجّه لنفوس المعنيّين (الضعفاء)، ليكشف لهم بأن مثل هذا السلوك ليس لمن هم راسخين فى الإيمان، بل سلوك المتزعزعين، وغير الثابتين، والمعرضين بالتالي لخطر السقوط.

٤- هنا أيضًا يتبع القاعدة عينها، نظرًا إلى الضعف البالغ لمن كانوا يخجلون من البتوليّة، لذلك لم يُفصح علانية عمّا كان يفكّر به صراحة، لكن في مديحه لمن حفظ عذراءه كان في الواقع ينتقد بشدّة. ماذا يقول إذاً؟ **«وأمَّا من أقام راسخًا في قلبه»** (**١كو٧: ٣٧**)، وهي كلمات ضد ذاك الذي يتأرجح بعدُ في عدم اكتراث، الذي لا يعرف أبدًا كيف يسير بخطوة ثابتة والذي لا يملك الشجاعة الكافية للثبات على عزمه. وحينما أدرك أن هذا الكلام كان كافيًا ليخترق في هجومه نفْسَ محدثه، انظُر كيف يخفّف من حدّته مجدّدًا، بعد أن قدم سببًا لا يستوجب اللوم في شيء على

الإطلاق. فبعد أن قال: «وأمَّا من أقام راسخًا في قلبه»، أضاف قائلاً: «ليس له اضطرار، بل له سلطان على إرادته»، وكان من المنطق ربما أن يقول هكذا: «من أقام راسخًا ومن لا يرى فى هذا شيئًا من عدم اللياقة». غير أن عبارة كهذه قد تكون شديدة القسوة هنا، لذلك استبدلها بأخرى لتشجيع سامعيه، مُعطيًا إمكانيّة اللجوء بالأحرى إلى هذا السبب. ذلك أن معارضة البتوليّة عن إكراه أقل خطورة مّما لو كانت عن استحياء منــــها، لأنه في الحالة الأولى يتعامل مع نفس ضعيفة بائسة، أمَّا في الثانية فيتعامل مع نفس فاسدة عاجزة عن أن ترى الأمور باستقامة.

٥- ولكن، لم يكن الوقت بعد ملائمًا ليقول تلك العبارة، إذ لا يجوز قطعًا- ولو في حالة الإكراه- أن تُمنع تلك التي قرّرت أن تبقى عذراء من أن تبقى كذلك، بل علينا بخلاف ذلك أن نُعارض، وبقوة، كل ما قد يُحبط عزمًا جميلاً كهذا. اسمع ما يقوله المسيح في هذا المجال: **«من أحب أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقني»** (مت١٠:٣٧). إذًا، إن كنا نسعى في مسلك يتوافق وإرادة الله، فلْنَعتبر أن كلّ من يضع عقبة فى هذا المسعى إنما هو عدو وخصم لنا، سواء أكان أبًا أو أمًا لنا أو أيّ شخص آخر. أمَّا الرسول بولس، إذ كان عليه أن يتحمّل بعدُ ضعف سامعيه كتب إليهم قائلاً: «من أقام راسخًا، وبدون اضطرار». كما وأنّه لم يتوقّف عند هذا الحدّ، حتى ولو كانت عبارتا «ليس له اضطرار» و«بل له سلطان على ارادته» مترادفتين.

٦- بل في متابعته الكلام وتقديمه التنازلات الثابتة، كان يُطمئن الفكر البسيط الضعيف، وذلك حين أضاف على تلك الأسباب كلها سببًا آخر

فقال: «وقد عزم فى قلبه»، إذ لا يكفي المرء هنا أن يكون حرًا في الواقع، فهذا ليس بكاف للإلتزام (بالبتوليّة)، بل إن الاختيار المتعقّل والقرار بعزم القلب هما وحدهما ما قد يستطيعان القيام بِهذا العمل الحسن. ولئلاّ يبدو لك حلْمُه الكبير وكأنه يُبطل البُعد ما بين البَتوليّة والزواج، عاد من جديد إلى إبراز الفرق، بحياء دون شكّ، ولكن مع الدلالة إليه رغم ذلك في قوله: **«من زوّج عذراءه فحسنًا يفعل، ومن لا يزوّج يفعل أحسن»** (١كو٧:٣٨). هنا أيضًا، ولأجل السبب عينه، لم يَكشف عن مدى هذا التصرّف الأحسن، أمَّا إن أردت معرفته فاسْمع قول المسيح: **«[في القيامة] لا يزوّجون ولا يتزوّجون، بل يكونون كملائكة الله في السماء»** (مت٢٢: ٣٠). هل رأيت المسافة التي تفصلهما، وإلى أيّة مكانة ترفع البتوليّة الإنسان المائت دفعة واحدة، إذا كانت بتوليّة حقّة؟

٧٩- في أن إيليا ورفاقه ما كانوا يختلفون في شيء عن الملائكة وذلك بفضل البتوليّة.

١ – أخبرني، بماذا كان يختلف كلّ من إيليا، وأليشع، ويوحنا هؤلاء المحبون الحقيقيون للبتوليّة عن الملائكة؟ لا شيء، ما خلا تلك الأمور المتعلّقة بطبيعتهم المائتة، حتى أننا لو تفحّصنا جيدًا سائر الأمور الآخرى لديهم لما وجدناهم بعيدين عن معادلة الملائكة، بل يبدو أن هذا الضعف هو الذي يُساهم بالأولى في مدحهم. إذ أنَّهم استطاعوا التقدمّ إلى هذه الدرجة من الفضيلة وهم ساكنون على الأرض وخاضعون بالتالي لضغوطات الطبيعة المائتة، إن ما يحمل إلى التفكير بتلك الشجاعة، بل بِتلك الحكمة التي وراء ذلك. أنَّهم مدَينون للبتوليّة في هذا الأمر. ها هو الدليل:

إذ لو كان لديهم امرأة وأولاد لما استطاعوا بسهولة أن يسكنوا القفر ولما احتقروا البيت وسائر وسائل الرفاهية. بل لأنَّهم قد تحرّروا من هذه الرُبُط كافّة، كانوا يعيشون على الأرض وكأنَّهم في السماوات، حتى أنَّهم ما كانوا بحاجة قط إلى جدران، أو سقف، أو فراش، أو مائدة، أو أي شيء من هذا القبيل، إذ كانت السماء سقفَهم، والأرض فراشَهم، والقفر مائدتَهم.

٢- فما يكون سببًا للجوع عند الآخرين، أعني به جذْب القفر، كان من ثمّ مصدر خصب لهؤلاء القدّيسين. فلم يكونوا محتاجين البتة إلى كروم، أو معَاصر، أو حقول، أو محاصيل، بل كانت الينابيع والجداول والواحات هي التي تزوّدهم بماء عذب، وكان الملاك هو الذي يهيىء لأحدهم (**١مل١٩: ٥-٧**) مائدة عجيبة غريبة أعظم من تلك التي اعتاد عليها البشر، إذ قيل له أن يكفيك هذا الخبز الوحيد للصمود طوال أربعين يومًا. ونعمة الروح هي التي غالبًا ما كانت تُشبع أليشع صانع المعجزات (**٢مل٤: ٣٨-٤٤**)، وليس هو وحده فقط، بل و أيضًا آخرين بواسطته. ويوحنا الذي كان أكثر من نبي وأعظم مواليد النساء (**مت١١: ١١،٣: ٤، مر١: ٦**)، لم يكن بحاجة هو أيضًا إلى طعام بشري، فلا الحنطة ولا الخمر ولا الزيت هو الذي كان يغذّي حياته الجسدية، بل الجراد والعسل البريّ. ألم يكن هؤلاء إذًا ملائكة على الأرض؟ أليست هذه قوة البتوليّة؟ فهولاء الذي جُبلوا من اللحم والدم، السائرون على الأرض، الخاضعون لضرورات الطبيعة المائتة، قد جعلتهم البتوليّة أهلاً للتصرّف في كل شيء كما لو كانوا بلا أجساد، وكما لو كانت السماء قد آلت إليهم فنالوا الخلود منذ الآن.

٨٠- في معنى عبارة «لأجل اللياقة والمثابرة للرب».

١ – لقد كانت كل تلك الأشياء غير ضرّورية بالنسبة إليهم، ليست تلك التي هي بالحقيقة غير ضرورية وحسب، كالمسّرات والغنى والسلطان والمجد وكل ما يأتى عن هذه الأوهام، بل وحتى تلك التي تُعتبر ضرورية أيضًا كالبيوت والمدن والوظائف، وهذا ما يجب فهمه من عبارة **«لأجل اللياقة والمثابرة للرب»** (**١كو٧: ٣٥**) المتعلّقة بفضيلة البتوليّة. فإن كبح جماح الأهواء وقمع الطبيعة الثائرة هو أمر يدعو إلى العجَب بالتأكيد ويستحق العديد من الأكاليل، لكنه لا يكون عجيبًا حقًا ما لم يقترن بحياة مماثلة. أمّا لو اقتصرت على البتوليّة فى حدّ ذاتها فقط لكَانت مجرّد ضعف، ولما كانت كافية حتى لخلاص أصحابها، وتشَهد على هذا أولئك اللواتي يمارسنّ البتوليّة اليوم أيضًا واللواتي مازلن، مع ذلك، بعيدات عن إيليا وأليشع ويوحنا كبُعدَ الأرض عن السماء.

٢– فكما في نزع «اللياقة والمثابرة للرب» انتزاع لعَصَب البتوليّة، هكذا عندما يضاف إليها (البتوليّة) كمال السلوك كمن يحتفظ بجذر الخيرات ومنَبعها، وكما تفعل التربة الجيدة للجذر هكذا يغذى السلوك الكامل ثمار البتوليّة، بل أن الحياة المصلوبة (**غلا٦: ١٤**) هي جذر البتوليّة وثمرُها معًا. فهي التي تدهن بالزيت أولئك الأسخياء لأجل حياتَهم المثيرة للإعجاب، قاطعة عنهم كافة الرُبط التي تربطهم ومعطية لهم القدرة على التحليق نحو السماء بسهولة كما لو كانت لهم أجنحة. فمن كان بلا زوجة يهتّم بها وأولاد يعولهم يسهل تجرّده، لأن التجرّد يُقربنا إلى السماوات محرّرًا إيّانا، لا من المخاوف والهموم والمخاطر فحسب، بل ومن كافّة الضيقات الأخرى أيضًا.

٨١- في جمال التجرّد.

إن من لا يملك شيئًا كمن يملك كل شيء (**٢كو٦: ١٠**) يحتقر كل شيء، وهذا ما يجعله يتصرّف برباطة جأش بالغة نحو الرؤساء وأصحاب النفوذ، بل وإزاء الملوك. ذلك لأن من يحتقر الثروات في طريقه يكون من السهل عليه احتقار الموت، ناهيك عن مخاطبته الجميع بثقة، ودون خوف من أحد. أمَّا من كانت المقتنيات هاجسَه فلن يكون عبدًا لهذه المقتنيات وحسب، بل هو عبد للمجد الباطل والكرامة الكاذبة والحياة الحاضرة أيضًا، وبالإختصار، هو عبد لكل ما هو بشري. لذلك قال الرسول عن محبة المال أنَّها **«أصل لكل الشرور»** (**١تى٦: ١٠**)، هذه الأصل قضت عليه البتوليّة بجدارتّها لتغرس مكانَها أصلاً آخر فينا، أعنى به ذلك الأصل المقدس الذي تخرج منه كل الخيرات، كالحرية، ورباطة الجأش، والشجاعة، والغَيْرَة المتّقدة، والمحبة الملتهبة للسماويات، والإزدراء بالأرضيات. وهكذا نصل «للمثابرة للرب».

٨٢- في الردّ على القائلين بأن أنصار البتوليّة يريدون الذهاب إلى أحضان إبراهيم.

١ - ولكن، بَم يتفلسف معظم الناس هنا؟ يقولون أنه كان لإبراهيم أبي الآباء امرأة، وأولاد، وثروة، وقطعان من الغنم والبقر، ومع ذلك كله، كان كلّ من يوحنا المعمدان ويوحنا الإنجيلي وكلاهما بتول يوّد الذهاب إلى أحضان إبراهيم. من قال لك هذا أيها العزيز؟ أي نبي؟ أي إنجيلي؟ المسيح نفسه هو من أعلن هذا، إزاء ذلك الإيمان العظيم الذي وجده عند قائد المئة، حين قال: **«إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب ويّتكئون مع**

إبراهيم وإسحاق ويعقوب» (مت٨: ١١). وكذلك الغنّي، ألم يَرَ لعازر مشاركًا أبا الآباء في النعيم هناك (لو١٦: ٢٣)؟ وما علاقة هذا ببولس، وبطرس، ويوحنا؟ فبولس ويوحنا لم يكونا لعازر، وهؤلاء «الكثيرون الذين سيأتون من المشارق والمغارب» لم يشكّلوا جماعة الرسل، وهكذا يكون كلامك بلا أساس ولا قيمة.

٢- إن رغبت أن تعرف تمامًا تلك المكافآت المحفوظة للرسل، فاسمعْ إذا ما يقوله من هو موزع لهذه الخيرات: **«إنكم أنتم الذين تبعتموني، في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده، تجلسون أنتم أيضًا على اثنى عشر كرسيًا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر»** (مت١٩: ٢٨). ولم يَرد هنا ذكر ما يختصّ بإبراهيم، أو ابنه، أو حفيده، أو الحضن الذي اقتبلهم، بل الكلام هنا يختصّ بكرامة أكثر رفعة بكثير، إذ أنَّهم سيجلسون على عروشهم ليدينوا أبناء هؤلاء أنفسهم. أضْف على ذلك أن الفرق لا ينحصر في ذلك وحسب، فمكافأة إبراهيم ينالها الكثيرون- لأنه يقول: «إن كثيرين يأتون من المشارق والمغارب، ويتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب»- أمَّا تلك الكراسى فما من أحد يعتليها سوى جماعة الرسل القديسين.

٣- وماذا بعدُ، اتكلّمنى من بعدُ عن قطعان الغنم والبقر وعن الزواج والأولاد؟- فيقول لى: ولِمَ لا، طالما أن كثيرين مّمن مارسوا البتوليّة بعد أتعابًا كثيرة قد رغبوا في الوصول إلى هناك - إذًا، سوف أوضح لك أمرًا أكثر خطورة، وهو أن كثيرين مَمن مارسوا البتوليّة لن ينالوا حتى ولا حضنَ إبراهيم أو مكافأة أقل، بل سيذهبون إلى جهنّم، كما رأيت في مَثَل

العذارى الجاهلات- هل تتساوى البتوليّة بالزواج على هذا، أم أنَّها دونه مرتبة؟ أن هذا المَثَل الذي استشهدت به يجعلها أدنى مرتبة، فإبراهيم المتزوّج يحظى الآن بالراحة والهناء في حين أن الذين مارسوا البتوليّة قابعون في جهنّم، وهذا ما يُفترض استنتاجه من كلامك- ولكن، الأمر ليس كذلك، إذ حاشا للبتوليّة أن تكون دون الزواج مرتبة، بل هي أرفع شأنًا بكثير منه. وكيف هذا؟ إن إبراهيم لم يكن قطّ مدينًا للزواج في مصيره السماوي، كما أن البتوليّة لم تكن هي سبب هلاك أولئك الفاشلات، بل كانت فضيلة نفْس أبي الآباء هي التي ضمنت له تألّقَه، وفساد حياة هؤلاء هو الذي أسلمهنّ للنار. فإبراهيم، وإن كان عائشًا في الزواج، إلاّ أنه قد اجتهد في التذرع بمزايا البتوليّة، أعني «اللياقة والمثابرة للرب».

٤- أمَّا هؤلاء فقد سقطن في عواصف الدهر ومتاعب الزواج، وإن كنّ قد اخترن البتوليّة-. فيقول: «إذًا، ما الذي يمنع الآن أيضًا، مع الزيجة والأولاد والثروة وسائر الامور الأخرى، من أن تحفظ هذا «اللياقة والمثابرة للرب؟»- أولاً، لأنه ما من أحد في أيامنا يماثل إبراهيم أو يشابهه ولو قليلاً. فلقد تفوّق على من مارسوا التجرّد، في ازدرائه بالمقتنيات على الرغم من كونّها وافرة لديه، وفي كبْحه اللذّة أيضًا على الرغم من أنه كانت له زوجة، وأفضل من النذيرين للبتوليّة أنفسهم. هؤلاء إنما تُضرمهم الشهوة كل يوم في الواقع، أمَّا هو فقد أخمد لهيبها إلى حد بعيد، وتحرّر من رُبُط الهوى حتى أنه لم يكتف بعد الاقتراب من سُرّيته وحسب، بل طردها من بيته أيضًا (**تك٢١: ١٠-١٤**)، لمنع كل فرصة للخصام أو الخلاف، وهذا سلوك يصعب وجوده جدًا في أيامنا.

٨٣- في أن مستوى الفضيلة المعروضَ علينا لا يتساوى ومقياسَها فيما مضى.

١ - إضافة إلى ذلك السبب، سوف أكرّر الآن أيضًا ما قد سبق فقلته سابقًا: أنه ليس مطلوب منّا مستوى الفضيلة الذي كان مطلوبًا آنذاك. لأنه لمن المستحيل في أيامنا أن يكون المرء كاملاً إن لم يَبع كل مالَه، وإن لم يكن زاهدًا في كل شيء، لا أقول زاهدًا في ثروته وفي بيته وحسب، بل وفي نفسه أيضًا. أمَّا في ذلك الحين فلم يكن يوجد بعدُ من نموذج لمثل هذا النوع من المتطلّبات. فيقول: «ماذا إذًا؟ أنحيا اليوم حياة بالتزامات أكثر من تلك التي عاشها أبو الآباء؟» نعم هذا ما يتوجب علينا بالتأكيد وهذا ما قد أُوصينا به، لكننا لا نحياه، ولذا لم نبلغ بعد إلى مستوى هذا البار، أمَّا السبب في ذلك فهو أن الاختبارات الموضوعة لنا أعظم شأنًا، وهذا بديهيّ للغاية. لهذا لم يبالغ الكتاب في تقديمه لنا نوح كَمثال للإعجاب، وقد أوضح تباينًا في هذا الأمر إذ قال: **«كان نوح رجلاً بارًا كاملاً في أجياله. وسار نوح مع الله»** (تك٦:٩). هو إذًا «لا عيب فيه»، ولكن بالنسبة إلى وقته هو. فهناك أمثلة عديدة للكمال، ولكنها تتحدّد تبعًا للظروف، بحيث أن ما كان يُحسَب كمالاً في عصر ما يصبح ناقصًا بمرور الأيام.

٢ - قديمًا، كان الكمال هو الحياة حسب الناموس، إذ قيل: **«إذ فعلها الإنسان (الوصايا) يحيًا بِها»** (لا١٨:٥)، ولكن المسيح أتى، وأظهر أن هذا الكمال كان ناقصًا إذ قال: **«إن لم يزد برّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات»** (مت٥:٢٠). قديمًا كان القتل وحده يُعتبر

جريمة، أمَّا الآن فيكفي الغضب والشتيمة لإلقائنا في جهنّم (**مت٥:٢٢**). قديمًا أُعتبر الزنا وحده مدعاة للعقاب، أمَّا الآن فالنظرة الخاطفة الفاحصة للمرأة لا تدع صاحبها يفلَت من العقاب. قديمًا كان الحَنَث بالقسَم وحده هو من الشرير، أمَّا الآن فمجرّد القسَم يكون من الشرير، إذ قيل: **«ما زاد على ذلك فهو من الشرير»** (**مت٥:٣٧**). كان مطلوبًا من الناس في ذلك الوقت أن يحبّوا الذين يحبّونَهم وحسب، أمَّا الآن فقد بدا هذا الصنيع العظيم العجيب ناقصًا، حتى أن إتمامه لا يُعطينا أجرًا أكثر مما يُعطى للعشارين (**مت٥:٤٦**).

٨٤- في أن أفعال الفضيلة نفسها لا تستحق نفس الأجر لنا ولمن كانوا تحت الناموس القديم، وهذا حق.

١ - إذًا، لماذا لا تستحق أفعال الفضيلة ذاتَها الأجرّ نفسه لنا ولمن كانوا تحت الناموس القديم؟ بل ولماذا يجب علينا أن نُظهر قدرًا أعظم من الفضيلة إذا ما كنا نريد أن نُعامل مثلهم؟ هذا لأن نعمة الروح قد انسكبت الآن بسخاء، ولأن العطيّة كانت عظيمة بمجيء المسيح حتى أنَّها جعلتنا رجالاً كاملين بعد أن كنّا أطفالاً. فكما أننا نطلب حسن السلوك من أولادنا عند فترة البلوغ، إذ أن الأفعال التي كنا نشجعهم عليها في طفولتهم لا تعود تنال اعجابنا إذا ما قاموا بها في مرحلة البالغين، بل نطلب منهم سلوكيات أخرى أكثر رصانة، وهذا ما جرى أيضًا للطبيعة البشرية. ففي الأيام الأولى لم يطلب الله منها أعمال برّ عظيمة، لكونَها لم تزل بعد في حداثتها، ولكن ما أن سمعت صوت الأنبياء والرسل ولمسّتها نعمة الروح حتى رفع الله من مستوى الفضائل التي كان يطلبها منها، وهذا

حق، إذ أنه يقدم لنا اليوم مكافآت أرفع شأنًا ومكاسب أكثر تألّقًا بكثير، فلم تعد بعدُ الأرض ولا الأرضيات، بل هي السماء والخيرات التي تفوق العقل مقدمة لمن يكمّلونَها.

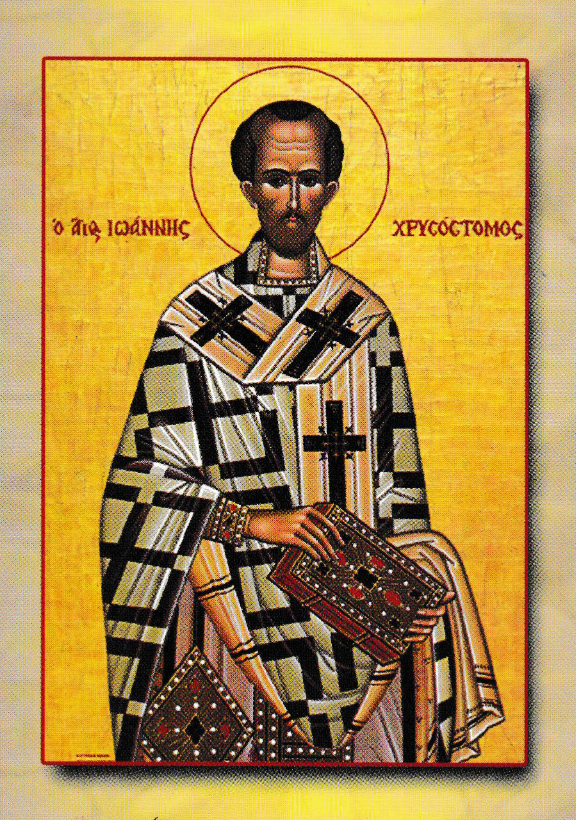
٢- أليس من الحماقة أن نستمر في الطياشة بعد بلوغ مرحلة الرجولة؟ قديمًا كانت الطبيعة البشرية ممزَّقة في داخلها وضحيّة لصراع شديد، مّما حدا بالطوباويّ بولس في وصفه لهذه الحالة بالقول: **«ولكني أرى ناموسًا آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني، ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي»** (رو٧:٢٣). أمَّا الآن فلم يعد الأمر كذلك، لأن **«ما كان الناموس عاجزًا عنه، في ما كان ضعيفًا بالجسد، فالله إذ أرسل ابنه في شبه الخطية، ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد»** (رو٨:٣٠). وعندما أراد الرسول بولس أن يشكر الله على ذلك هتف قائلاً: **«ويحي أنا الإنسان الشقي! من ينقذني من جسد هذا الموت؟ أشكر الله بيسوع المسيح ربنا!»** (رو٧:٢٤و٢٥).

٣- وهذا من العدل أيضًا أن نُعاقَب، نحن الذين تحرّرنا من القيود، فيما لو لم نفعل ما فعله المثقلون بالقيود أنفسهم، بل حتى ولو استطعنا الإسراع على غرارهم لما أفلتنا لهذا من العقاب، إذ يجب على الذين ينعمون بالسلام العميق أن يرفعوا علامات الانتصار أمَّا إن أردنا التفرّغ للمقتنيات والمُتَع والنساء والاهتمامات التى لا تنتهى، فمتى نصير إذًا رجالاً؟ متى نحيّا بالروح؟ متى نَهتمّ بما للرب؟ هل عندما نغادر هذه الدنيا؟ ولكن، حينذاك لن يكون هناك وقت للأتعاب أو للحروب، بل هو وقت للأكاليل أو للعقوبات. فالعذراء التي ليس لها زيت في مصباحها، يستحيل

عليها عندئذ أن تستعيره من سواها، بل تبقى خارجًا (**مت٢٥:١-١٢**)، وذاك الذى سيقف بثياب قذرة، يستحيل عليه الخروج لتبديل حُلّته، بل يُطرح فى نار جهنّم (**مت٢٢:١-١٤**)، وإن نادى إبراهيم نفسه لنجدته فلن يُجديه ذلك نفعًا من بعد (**لو١٦:٢٤**). ذلك أنه متى أتى يوم الرب، وجلس الديّان، وجرى نَهر النار (**دا٧:١٠**)، وافتتح فحص أعمالنا، عندئذ لن نستطيع التهرّب من زلاّتنا، بل سوف نُجرّ طوعًا أو كرهًا إلى العقاب الذي نستحقّه لنا. ولن يوجد في ذلك الحين من يتوسط لأجلنا، بل حتى ولو كان لأحدهم أن يضمنه رجال عظماء، ولو كان له نوح أو أيوب أو دانيال ليبتهل من أجل بنيه وبناته، فلن ينفعه ذلك أيضًا في شيء.

٤- عقوبة الخطاة ستكون دائمة ليس لها نهاية، وكذلك مكافأت الأبرّار، تمامًا كما صرّح المسيح حين قال: «إن كانت الحياة أبدية فالعقاب سيكون هو أيضًا أبديًا». فبعد أن قبل القائمين عن يمينه وأدان القائمين عن يساره أضاف قائلاً: **«فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدي. والأبرّار إلى حياة أبدية»** (**مت٢٥:٣١-٤٦**). لهذا يجب علينا ها هنا أن نبذل كلّ ما في وسعنا: فمن كانت له امرأة، يكون وكأنه بلا امرأة، ومن كان بلا امرأة، يتدرب على البتوليّة والفضائل الأخرى كافّة، وذلك لئلا نحترق بنحيب لن يُجدينا نفعًا عند مغادرتنا هذه الحياة.

✠ ✠ ✠ ✠



أتريد أن تكون بتولاً؟

إن كنت تتوقّ إلى هذا، اِهزم الأسد، اهزم شهوات الجسد، اِغلب العالم فى روح الله، اِنتصر على الزمنيات الباطلة التى تعبر وتشيخ وتفسد وتنتهى، اِغلب التنين (رؤ١٢: ٧)، اِغلب الأسد (١بط٥: ٨)، اِغلب الحيّة (٢كو١١: ٣)، اِغلب الشيطان بيسوع المسيح الذى يقويك، اِحمل صليبك واتبعه (مت٢٦: ٢٤)، ذاك الذى يطهرك، يسوع المسيح ربك.